٩٨

روايات أحلام

امرأة في حصار

www.elromancia.com

مرمورية

روايات أحلام

www.elmoneca.com

امرأة في حصار

كيف تواجه كونتاً غاضباً إلى هذا الحد؟

ـ سأفعل ما بوسعي لأنقذ أخي من براثن امرأة مثلك!

هل يستطيع هذا الكونت الإسباني المتعجرف أن يفهم أنها ليست من يقصد بل ابنة عمتها الصغيرة الطائشة؟ ولكن لماذا توضح له؟ فلتتركه يتحمل نتيجة خطأه، لعل هذا يلقنه درساً!...

كان هذا قراراً وليد لحظته ولكنه كلّفها حريتها فلم تعد روث تستطيع التخلص من قبضته، ولم ينجها حتى قول الحقيقة!..

١ ـ الكونت الغاضب

قال آنسون سارجنت لمساعدته مبتسماً:

ـ صدقاً روث، لا أدري ما ستفعل عائلتك بدونك.. ما الأمر هذه المرة؟ أنسيت عمتك مفتاحها أم أن زوجها قد نسي أن يحمل معه دفتر شيكاته من البنك؟

قالت روث سوامز وهي تخفي ابتسامتها: «لا هذا ولا ذاك».

صحيح أن عمتها وزوج عمتها يتصلان بها في مكان عملها لطلب المساعدة كلما وقعت أزمة عائلية.. ولكنهما غير معتادين على سرعة العالم التجاري الحديث.. فما زال زوج عمتها، العم ماتيو، يعيش في حلم يقظة لزمن ما قبل الحرب، يشجعه على هذا مسيرة الحياة الهادئة في بلدة صغيرة، والعمل الذي ورثه عن والده.. والواقع أن العمة آنيت ليست بأفضل حالاً منه فهي كثيرة التوتر والتردد والتذمر. هذه حال العم والعمة، أما سيسلي...! تنهدت روث، فالمشاكل التي تقع على عاتقها بسبب ابنة عمتها البالغة الثامنة عشرة من العمر تجعل من مشاكل عمتها وزوجها مشاكل تافهة.

اعتذر آنسون مبتسماً: «حسناً.. حسناً.. أنا آسف على

الانتقادات التي ذكرتها بحق عائلتك.. أعتقد أنني أغار. فهل تتركين كل شيء وتهرعين إلي لو أقفلت الباب على نفسي وأنا في الخارج؟»

ردت مبتسمة: «لن تستفيد شيئاً إن فعلت.. فأنت تسكن في شقة فوق السطوح، فيما تسكن عمتي وزوجها في منزل متداع قديم كان في الأصل مقراً لقسيس، وفيه لا يستطيع أي منهما تدبير أمره.. أما أنت..»

ـ آه.. بدأت أفهم. إنما لا يحول هذا دون أن أتمنى لو يتوقفا عن حرماني من مساعدتي الغالية!

عبست روث: «يجب أن أذهب هذه المرة.. إنها سيسلي».

عضت شفتها السفلى المكتنزة، والتصق حاجباها السوداوان بسبب تقطيبة قلق.. المشكلة أن عمتها وزوجها رزقا عن غير توقع بسيسلي وهما في عمر متقدم. وهما حتى الآن لم يتغلبا على الصدمة.

قال آنسون: «سيسلي.. تلك الفتاة خطرة.. أذكر جيداً اليوم الذي صحبتها فيه إلى هنا».

و«هنا» يعني صالونه اللندني الفخم، حيث يعرض فيه أصنافاً ساحرة من الثياب الجاهزة التي تحمل اسمه، وقد عملت روث عنده منذ تركت مدرسة الفنون.. وكم أحبت عملها كمساعدة له. كانت ترى أن لا أحد يضاهيه في تصميم قطع الثياب المنفردة، التي لا تشكل زياً كاملاً. وكان هو يعزو السبب إلى حسن اختيار القماش والأسلوب. وتعرف روث أن القلة القليلة فقط من أنيقات بريطانيا الثريات ليس في لائحة

ملابسهن شيء من تصميمه.. كان حلمه الكبير أن تصل تصاميمه وأناقتها إلى الشوارع الأرقى في المدينة، مع الحفاظ على أسعار تستطيع تحمل أعباءها كل امرأة.

كبتت روث تنهيدة عندما فكرت في ابنة عمتها.

ـ إنها غير ناضجة.

ـ ولكنك بدأت العمل عندي وأنت في مثل عمرها. أرى أنكم جميعكم تلقون تلك الفتاة في القطن، وأنتم بهذا تفسدونها، وهي تستغل هذا. ماذا كنت تفعلين وأنت في الثامنة عشرة؟ أراهن أنك لم تعتمدي مالياً على «مامي» و «دادي»؟

ردت بكآبة: «لا».

فقد مات والداها قبل بلوغها عامها الثامن عشر بثلاثة أشهر وكانا قد لقيا حتفهما إثر حادثة سيارة عندما كانا راجعين من زيارة أصدقائهما. ما تزال تذكر محاولات العم ماتيو عندما أراد أن يبلغها الخبر، ووجه العمة آنيت الأبيض. طبعاً، قدما لها بيتاً تقيم فيه، ولكنها يومذاك كانت قد خططت مستقبلها العملي.. أولاً مدرسة الفنون، ثم، وظيفة في تصميم الأزياء.. هكذا، استخدمت جزءاً من المال الذي تركه لها أبواها، واشترت شقة صغيرة في لندن، ولكنها ظلت على اتصال وثيق بعمتها وزوجها. وهما الآن من تبقى من عائلتها، والعائلة تصبح أهم عندما لا يتبقى للمرء إلا القليل من أفرادها.

أراد والدا سيسلي أن تلتحق بالجامعة بعد إنهاء الدراسة الثانوية ولكن عندما أصبحت في الصف السادس، قررت فجأة أنها تعبت من الدراسة، وأنها لا تريد مستقبلاً عملياً أبداً.. فكان أن عملت وهي في الثامنة عشرة في مكتب أبيها وأخذت

تتذمر من هذا لروث كلما التقتا.

قال آنسون بشيء من الاستياء:

ـ أردت أن أحدثك عن رحلتنا إلى إسبانيا.

ابتسمت روث مداعبة.. فهو حتى في الثامنة والأربعين من عمره يبدو قادراً على إظهار أسوأ ما في خصائل صبي صغير. وكانت روث تعذره لأنه مصمم من الدرجة الأولى ولأنه رب عمل ممتاز، مرن، مؤمن بقدرتها في العمل. كان يركّز على معرض المنسوجات منذ عدة أشهر.. في البدء خطط للسفر بمفرده.. ثم اقترح عليها مرافقته. لقد سمع عن مؤسسة إسبانية اكتشفت سلسلة من صباغ الألوان للخيوط الطبيعية وعلم أن النتائج كانت مذهلة.. ولم يكن النسيج الذي تنتجه الشركة يباع إلا لمؤسسات خاصة محدودة، وتعرف روث أن آنسون يتوق للتعرف إلى المدير الإداري.

ـ لا أدري أن كنت قادرة على مرافقتك.

قال محتجاً: «لا تقولي إن السبب عائلتك. عليك في هذه المرة أن تطلبي منهم أن يتدبروا أنفسهم بدونك. أحتاج إليك روث».

ـ حسناً. إنما لا أريد المزيد من الانتقادات الجارحة نحو سيسلي.

ـ صعبة المراس! عنيدة! لكنني أرى أن كلماتي لن تؤثر فيك، لذا من الأفضل أن تنهي عملك باكراً.

آنسون في الواقع رجل محبوب.. هذا ما فكرت فيه روث وهي تفتح باب شقتها بعد ساعة. كان بينهما علاقة عمل ممتازة.. لم يكن هناك من يرث خطاه في عمله، ولقد ذكر لها

أكثر من مرة أنه على استعداد لعرض الشراكة عليها، هذا إن سارت الأمور على ما يرام.. ذكر أنهما سيكونان فريقاً جيداً، ووافقته روث رأيه.

ضحكت وهي ترى انعكاس صورتها في المرآة. فقد هرعت من المكتب إلى المنزل، بدون أن تمشط شعرها أو تجدّد حمرتها.. رأت أنها تبدو غير مرتبة، فهي تعض دوماً شفتها السفلى، وتمرر أصابعها بنفاد صبر في شعرها الأسود القاتم الطويل.

كان شعرها بلا ريب مبعث فخرها. فهو طويل كثيف براق، يسترسل إلى ما تحت كتفيها على شكل جرس.. كانت تعقده أحياناً على شكل «كعكة» أنيقة، وذلك عندما يطلب منها آنسون مقابلة زبون يريد أن تخلف لديه انطباعاً مناسباً. كانت تحصل من هذا العمل في التصميم على ملابس بسعر الكلفة ولكن ما كان يساعدها كثيراً هو جسدها الرشيق وساقاها المديدتان.

قال لها مرة، يبدي تقديره: «أحب رؤية ملابسي على امرأة حقيقية.. فالأزياء هي طريقة لإبراز ميزة الأنثى، والواقع أن ما ترتدينه يليق بك كثيراً».

كانت سيسلي تضحك من رب عمل روث وتقول عنه إنه «رجل عجوز» ولكن روث كثيراً ما وبختها على نعتها ذاك.. نعم لا تنكر أن آنسون سليط اللسان وغير فاتن أو وسيم، ولكنه كان صادقاً، يحب مهنته التي اتخذها لنفسه.

وهناك أمر آخر كانت تسخر منه سيسلي، هو تردد روث في التورط في ما تدعوه «المرح».

والمرح بالنسبة لسيسلي هو العبث وقد ذكرت لها سيسلي أنها لو كانت مكانها لما كان هناك حدود «للمرح» الذي قد تحظى به.. ولكنها على عكس روث مقيدة بالوالدين العجوزين المملين، وبلدة «ميرتون» المملة.

بعد عدة محاولات لتصحيح سوء فهمها، اعترفت روث أن ابنة عمتها لا تريد أن تسمح لنفسها بالتحرر من خيالها. والواقع أن «حرية» روث كانت سلاحاً فعالاً ضد والديها عندما تثور ثائرتها، ولقد صدم روث مؤخراً أن تجد عمتها وزوجها مرهقين بسبب تصرفات ابنتهما. كانت روث تشعر بأنهما يتمنيان أن تتزوج ليحمل شخص آخر على عاتقه مسؤولية ابنتهما المتمردة، ولكن، سيسلي لم تظهر حتى الآن أية رغبة في الزواج، ولماذا تفعل؟ إنها صغيرة على الزواج فهي لم تتجاوز الثامنة عشرة، أما روث فهي الآن في السادسة والعشرين.. وفي هذا العمر يصبح المرء حذراً من الزواج وأعبائه.

ارتدت جينز وتي شيرت للانطلاق إلى منزل عمتها، وبعدما ارتدتهما سرحت شعرها بسرعة. كانت بشرتها رائعة، والحمد لله، ونادراً ما تستخدم الماكياج خارج العمل.. كانت عيناها بلون الذهب الأصفر وهو مزيج غير عادي إذا ما قورن بشعرها الأسود البراق. وعيناها ببياضهما الشكل، فيهما ملامح المرأة الشرقية ولكنها تفتقد لجمال سيسلي.

كانت الساعة قد تجاوزت الثامنة والنصف عندما انطلقت بسيارتها الصغيرة إلى الطريق المألوفة التي تقود إلى منزل القسيس.. عبست وهي تتذكر بكاء عمتها عندما كلمتها عبر

الهاتف. ماذا فعلت سيسلي هذه المرة بحق الله؟

ترجلت من السيارة فاستقبلها الصمت. الساعة التاسعة هي وقت العشاء.. سارت نحو المنزل وهي تعرف أنها ستجد عمتها في المطبخ.

انتفضت آنيت راندل قليلاً، ثم ابتسمت ارتياحاً ما إن رأت ابنة أخيها، واحتضنتها بحرارة.

ـ روث.. لقد جئت! آه كم تمنيت مجيئك! لقد كنت قلقة!

ـ هل سيس هنا؟

ـ لا.. خرجت.. مع تشارلز الينغهام.. إنه الشريف الشاب الذي قبل به عمك.. ويبدو أن سيس مهتمة به.

ـ أهنا تكمن المشكلة؟ ظننت أن هذا ما كنتما تتضرعان الله أن يحدث، أن تجد شخصاً آمناً وثابتاً لتستقر.. أليس هذا ما أردتماه دوماً؟ زواج آمن لطيف؟

ـ كنا نريد لها كل شيء.. ولكن كل شيء سيفسد بسبب تلك العطلة اللعينة!

ـ عطلة؟ أية عطلة؟

ـ كان ذلك منذ بضعة أسابيع.. أرادت السفر مع صديقتها إلى إسبانيا. رفض تشارلز سفرها لأنه يغار عليها.. ولكنك تعرفينها خير معرفة. الواقع أن رفضه جعلها أكثر تصميماً.. على أي حال، سافرت، وفيما هي هناك، حدث ما حدث.

ـ وماذا حدث؟ هل أمضت وقتاً طيباً؟

ـ خطبت.. تقريباً.. لشاب إسباني التقته هناك، وقد تراسلا بالخفاء عنا ثم أرتني أخيراً آخر رسالة له.. روث ماذا

www.elromancia.com

سنفعل بحق الله؟ لقد وعدت تشارلز بالزواج وإن اكتشف هذا..

- وكيف له أن يكتشف؟

لعنت روث سيسلي في سرها.. فهي تعرف أنها قادرة على تعليق رجلين في وقت واحد.

أضافت: كل ما عليها فعله هو إرسال رسالة للشاب الإسباني لتنهي ما بينهما.

- إنها لا تجرؤ.. بل تخشى أن يأتي إلى هنا ليعرف ما حدث.. وعندئذ ماذا ستقول لتشارلز؟

إن لم تتمكن سيسلي من الاعتراف بالحقيقة الآن لتشارلز، فهذا أمر سيء لزواجهما.. لكن روث امتنعت عن التفوه برأيها.

- لا تقلقي يا عمتي.. سيكون كل شيء على ما يرام.

- روث.. أعرف أنك قادرة على حل المشكلة. قلت لسيسلي إنك ستقدمين لنا يد المساعدة.

فتحت روث يديها: «بالتأكيد.. لكنني لا أدري كيف أستطيع...»

أعلنت العمة، وكأنها تتكلم عن رحلة إلى قرية قريبة:

- سافري إلى إسبانيا بكل تأكيد.. يجب أن تسافري لتقابليه يا روث ولتشرحي له أن سيسلي لا تستطيع الزواج به.

- أسافر إلى إسبانيا؟ لكن، عمتي..

قاطعتها العمة بسرعة متجنبة النظر إلى عينيها:

- كنت مسافرة على أي حال.. بإمكانك التحدث إلى ذلك الإسباني روث. أنت قادرة على أن تشرحي له بلغته ما تريده.

فكري في ما سيحصل لسيسلي لو جاء إلى هنا.. إنها تهتم حقاً بتشارلز، وأظنه يمتلك القوة التي تحتاجها..

تنهدت ثم أضافت: أظن أحياناً أنه كان عليَّ وعلى عمك أن نكون أقسى تصرفاً عليها.. لكن..

صمتت حالما انفتح باب المطبخ الذي ولجت منه بسرعة فتاة صغيرة شقراء.. لكنها توقفت قبل أن تصل إلى المائدة وصاحت بابتهاج:

- روث! لقد جئت.. أحمد الله! هل أخبرتك مامي..

- أن طالب ود متيم يلاحقك؟ أجل.. لكن صدقاً سيس..

- خلت أنني أحببته.. كان مختلفاً عن تشارلز ووجدت الأمر رومانسياً لا تنظري إليّ هكذا!

ضربت قدمها في الأرض، أما روث فرفعت عينيها إلى السماء. وأضافت:

- الأمر مختلف بالنسبة لك روث، فلم يسبق أن تورطت من قبل بمثل هذا.. أنت رزينة، غير رومانسية، لكن أنا..

أحست روث بالألم لأن الفتاة أصابت بتعليقها. كم سمعت منها هذا التعليق.. إذ كانت تقول لها أنت غير رومانسية كلما رفضت رجلاً! ولكنها كانت تفكر دوماً في سرها بأنها امرأة رومانسية ذات مبادىء.

ذلك المساء وفيما الفتاتان تستعدان للنوم سألتها روث:

- هل أنت واثقة بالنسبة لمشاعرك تجاه تشارلز؟

ردت وقد غزا وجهها صدق نادر:

- واثقة كما لم أكن يوماً.. ولكن، سيفسد كل شيء لو جاء لويجي إلى هنا ليعرف سبب انقطاعي عن مراسلته..

www.elromancia.com

اذهبي لرؤيته! لا أظنني قادرة على خسارة تشارلز!

كان في عيني سيسلي دموع، فشعرت روث بأنها تستسلم. فلا بأس برؤية الشاب وهي في إسبانيا.. وربما تضيف بضعة أيام إلى رحلتها لتراه، مع أنها مقتنعة بأنه لن يأتي إلى انكلترا.

لكن سيسلي صاحت منتحبة عندما ذكرت هذا لها:

- كنا مخطوبين عملياً.. وسيأتي روث.. أعرف أنه آتٍ!

تنهدت روث: «حسناً. سأقابله».

بعد ثلاثة أيام على ذلك شرحت روث لآنسون أنها تود إطالة مدة إقامتها في اسبانيا.

اعترض بعنف: «أتقولين إنك وافقت حقاً على مقابلة ذلك الروميو الطائش. ألا يمكن لابنة عمتك أن تنظف عملها الوسخ بيديها؟»

أكدت روث له، مشيرة إلى الوقائع بسرعة:

- ليس في هذه الحالة.. وأنا أتكلم الإسبانية.

في الواقع كانت تتكلم عدة لغات، وهذه هوايتها.

قال آنسون معترفاً: أرى أنه لن يشفيك شيء من هوس الحماية نحو ابنة عمتك أو عائلتك.. أتعلمين؟ أحمد الله أن لا عائلة لي!

- وماذا عن أيام العطلة الإضافية؟

- إنها لك.. مع أنني أفضل أن تمضيها في تسلية نفسك لا في صغيرتك سيسلي.. إنها طفيلية روث.. وستمتص كل طاقتك إن تركتها.. يجب أن تفهمي هذا.. فلماذا لا تفهمين؟

ردت ببساطة: «لأنها عائلتي.. هي وعمتي وزوجها، كل من تبقى لي».

إشبيلية، مدينة تروق لكل الأحاسيس.. وقعت روث في حبها حالما نزلت من الطائرة إلى الشمس المشرقة الربيعية.. قد تكون مدريد مركز التجارة الإسبانية وروث سافرت إليها في عدة مناسبات سابقة ولكن إشبيلية بالنسبة لها تجربة جديدة.

في البداية، دهشت عندما قالت لها إن لويجي يعيش في إشبيلية، فقد توقعت أن تجده في «الكوستا برافا»، ولكن سيسلي قالت لها إنه كان يقضي إجازة هناك يوم التقيا.

أصر آنسون على أن تقيم في الفندق نفسه في الأيام الإضافية على حسابه الخاص، رفضت لكنه ازداد إصراراً. تعلم نظراً لمعرفتها به أن الفندق الذي سيقيمان فيه سيكون أفخم الفنادق هناك وتأكدت من ذلك عندما توقف التاكسي أمام مبنى ضخم باروكي الطراز يعود للقرن السابع عشر.

حمل تكلمها الطلق بالإسبانية ابتسامة عريضة إلى وجه الفتاة الواقفة وراء طاولة الاستقبال.

الواضح أن الفندق كان يوماً منزلاً ضخماً، وتحول بذوق رفيع ودقة إلى فندق. كانت غرفة روث تطل على مناظر المدينة. وكان الأثاث جميلاً ومنسجماً مع عمر الغرفة وطرازها.

كان في الغرفة حمام حديث قد لا يجده المرء في فنادق بريطانية مماثلة. وهذا ما ذكرها بأن هذا الجزء من العالم حكمه يوماً العرب الذين تركوا خلفهم حبهم للفخامة والأحاسيس المرهفة.

ما إن أفرغت حقائبها، حتى نزلت إلى البهو، وهناك رأت كتباً ترشد السائح وخريطة.

www.elromancia.com

أكدت لها موظفة الاستقبال أن وقت وجبة العشاء في إشبيلية هو في العاشرة، وهذا ما يعني أن أمامها فترة العصر والمغرب للقيام بزيارتها.

أرادت أولاً أن تعلم إن كان رقم عائلة لويجي مدوناً في دليل الهاتف لتسأل متى يمكنها أن تزورهم.

تناولت غداء خفيفاً في مطعم الفندق، ثم صعدت إلى غرفتها لتراجع دليل الهاتف الذي وجدت فيه عدة أسماء لعائلة تريكاردوز ولكن ليس بينها رقم لويجي وهذا يعني أن عليها القيام بالزيارة بدون سابق إنذار.

استحمت واستبدلت ما ترتديه بثياب من الحرير الأخضر وهي من مجموعة آنسون الجديدة.. لكي تكمل زينتها، وضعت ظلالاً خضراء على جفنيها، وكحلت رموشها «بالماسكارا» السوداء.. ولكن الطقس كان حاراً لذا استغنت عن السترة.. كانت تمرر آخر مشط في شعرها الحريري الطويل عندما رن هاتفها وأعلنت موظفة الاستقبال أن التاكسي الذي طلبته قد وصل.

لم تجد صعوبة في تحديد العنوان للسائق بسبب إتقانها للغة الإسبانية.. ولكنها بدأت تظن أنها أخطأت في شيء ما عندما دخلت السيارة إلى أفخم منطقة في المدينة. كانت المباني الضخمة تحد الشوارع، هنا وهناك، سياج حديدي يضفي منظراً رائعاً على الحدائق القابعة خلفه. ولكن روث أحست بالعزلة، والوحدة المحروسة، وكأنما المباني نفسها كانت تشمئز من تطفلها.

أخيراً توقف التاكسي، فسألته بسرعة إن كان بإمكانه العودة

ليقلها بعد نصف ساعة فوافق.

ألقت نظرة على العنوان الذي أعطتها إياه سيسلي.. ثم ترجلت مترددة من السيارة، لتنظر إلى واجهة المبنى الضخمة.. لا حاجة للشعور بالتوتر، فالمبنى رغم ضخامة واجهته يحوي عشرات الشقق الصغيرة. ما إن وصلت إلى قمة درج صغير حتى رأت جرساً واحداً ضغطت عليه، لتسمع رنيناً خفيفاً في مكان عميق في المبنى.. وبدا أن دهراً مرّ قبل أن تسمع حركة خلف الباب الضخم.

أحست كأن ما تمر به جزء من فيلم رعب! انفتح الباب إلى الداخل مصدراً صريراً.

كان الرجل الذي وقف هناك مثالاً لخادم الطبقة العليا. نظر باستهجان إلى روث عدة لحظات، ثم بدا أنه على وشك إقفال الباب مجدداً في وجهها، فقالت بسرعة:

ـ اسمي روث راندال، جئت لأرى السنيور تريكاردوز.. هل هو في المنزل؟

تأملها الرجل فترة طويلة قبل أن يفسح لها المجال للدخول إلى ردهة كبيرة تكفي مساحتها شقة كاملة. كانت الأرض مرصوفة ببلاط «أزونيجو» الشهير الرائع بحيث كادت تحبس أنفاسها سعادة. ليت آنسون يرى هذا..! ألوانه مذهلة تتدرج من أرق ألوان الأزرق إلى اللون اللازوردي الأدكن المشبع.

تمتم الخادم: «أتمنى على السنيوريتا الانتظار».

فتح باباً آخر ثم أشار إلى روث أن تدخل إلى غرفة ضخمة كالردهة، فيها أثاث يعتبر تحفاً أثرية لا تقدر بثمن.. الواضح أن لويجي رجل بعيد كل البعد عن الفقر.

كرر الخادم ببطء: سنيوريتا راندال؟ سأرى إن كان بمقدر السنيور الكونت رؤيتك.

السنيور الكونت؟ نظرت روث دهشة إلى الرجل المبتعد.. لم تذكر سيسلي شيئاً عن لقب. ماذا دهاها؟.. فلن تتأثر بشيء أصبح قديم الطراز كلقب موروث! طالما احتقرت من يتمسك بلقب أو بمركز موروث.

كانت غارقة في دراسة اللوحة الموضوعة فوق المدفأة، عندما سمعت وقع أقدام أكثر ثباتاً وإصراراً من خطوات الخادم. أحست بالتوتر فها هي اللحظة الحاسمة، أحست بتوتر سخيف.. ماذا ستقول له حباً بالله؟ كيف لها أن تقول بجرأة إن سيسلي لا تريده وإنه يشكل إحراجاً لها، لأنها على وشك الزواج برجل آخر.

انفتح الباب.. خطف الرجل الذي وقف هناك أنفاسها. أول ما تبادر إلى ذهنها أنه رجل متعجرف بشكل بغيض إذ وقف يحدق إليها من فوق أنفه الارستقراطي.. كان فكه النحيل متشنجاً وكأنه يكبح غضباً شديداً.. جالت عينان رماديتان باردتان باستهجان فيها.

إنه رجل طويل، أطول بكثير مما توقعت، شعره أسود، مالس براق كريش الغراب.

الواقع أن كل ما في هذا الرجل وحوله يهمس بالثراء والأبهة. لا يمكن لروث، ولا بعد مليون سنة، أن تتصوره في إجازة رومانسية مع ابنة عمتها. فعمره أولاً ضعف عمرها. إنه في مستهل الثلاثين، وليس عليه ما يدل على أنه من الرجال الذين يطلبون إعجاب فتاة صغيرة.. فهذا الرجل لا يحتاج إلى

أية امرأة. إنه نتاج قرون من الثراء والترف. أحست روث بدمها يجري بارداً لمجرد التفكير بأن تقول له إن ابنة عمتها قررت الانفصال عنه بسبب شخص آخر.

ـ سنيوريتا راندال؟

كان يتقن الإنكليزية.

صوته صارم بارد.. ولكن، رغم سيطرته البارزة على نفسه، أحست روث بأن تحت الواجهة الباردة غضباً مشتعلاً.. ولكن لماذا؟ أتراه أدرك الغرض من مجيئها؟ فما هذا الرجل بغبي، ولا شك أنه أدرك من رسالة سيسلي الأخيرة ما هو الموقف؟

ـ سنيور تريكاردوز؟

لم يكن صوتها هادئاً كصوته، وقد أدركت ويا للأسف أنه يعرف أنه وتر أعصابها، وأنه تعمد هذا.

بدا من الواضح أنه لا ينوي تسهيل الأمور عليها.. ويا لها من حسن وفادة إسبانية! حسناً، لم يبق أمامها إلا الغوص في الموضوع والانتهاء من الأمر برمته.

ـ جئت أراك بخصوص..

ـ أعرف ما جئت من أجله آنسة راندال. ولا شك أنك تريدين مني أن أسهل الأمور عليك.. أعتقد أنك تأملين أن تقنعيني بعينيك الكبيرتين القلقتين، ولكن ويا لسوء الحظ، ذلك مستحيل. آنسة راندال وبما أنني قابلتك بنفسي، وبعدما تأكدت من كل مخاوفي أقول إنك أخطأت الإصابة. أرى أنك امرأة شابة في العشرينات من عمرها تحب الثياب الفاخرة، ولكنك جريئة لأنك أتيت إلى هنا وطلبت رؤيتي.. إنما اسمعي

لن أسمح لك أبداً بتدمير حياة أخي ولن أوافق أبداً على زواجه بك بسبب علاقة حدثت منذ عدة أشهر.

فقدت روث القدرة على النطق.. أقال شقيقه؟ هذا يعني أنه ليس.. لا يمكن أن يكون لويجي تريكاردوز. لكنه على ما يبدو يظنها سيسلي.. وكانت على وشك أن تصحح له معلوماته عندما فهمت ما قاله عن «علاقة» فسيسلي لم تذكر لها شيئاً عن علاقة.. الواقع أنها تركت لديها تصوراً بأن لويجي هو من يضغط عليها من أجل خطوبة لا تريدها.. وأما شقيقه فيعتقد العكس.. الواضح أن هناك سوء تفاهم عليها حل لغزه!

* * *

٢ ـ يجب أن تنساه

سحبت روث نفساً عميقاً ثم تساءلت من أين تبدأ، ربما تشرح له أولاً أنها ليست سيسلي.. كم يحتقرها! لا شك أنه متكبر متعجرف وهذا ما لا يعجبها أبداً.

فتحت فمها لتشرح.. ولكنها صدمت صدمة عنيفة من نظرته الهازئة الساخرة وهي نظرة لم يسبق أن حدجها بها أي رجل.. أحست بالحرارة تتصاعد في كيانها كله. كان يحدجها بنظرات مكشوفة ملؤها الازدراء. يا الله! كان يمكن أن تكون سيسلي هي التي تتعرض إلى هذا التأمل الخالي من الرحمة، وهي التي كانت تظن أن الاسبان متحفظون مثقفون يحترمون النساء!

بدأت تقول بصوت مرتعش بعدما استعادت جأشها، واشتعل غضبها في ألسنة لهب حارقة من جراء النظرة التي رأتها في عينيه:

ـ أنت لا تفهم..

ولكنه قاطعها بحدة: بل العكس، أفهم كل شيء خير فهم. يا الله! أتعتقدين أنني لا أعرف ما يجري في مثل تلك المنتجعات السياحية؟ لا شك أنك اعتبرت نفسك محظوظة

www.elromancia.com

لأنك التقيت بشاب ثري لا خبرة له مثل أخي الصغير. ولكن اعلمي أن لويجي لن يرث إرثه قبل ست سنوات وسأبقى أنا حتى يبلغ الخامسة والعشرين وصياً عليه.. يجب أن تعرفي أنني سأبذل ما بوسعي لأحرره من بين براثنك. يجب أن أعترف أنني دهشت من قدومك إلى هنا.. ألم يوضح لك لويجي أن العلاقة انتهت؟ أقنعته يومذاك بدفع الثمن، يا آنسة راندال، أما الآن، فالوقت متأخر لأنه بات يعرف جيداً.

التوت شفته وراحت روث تنتقل من الحرارة إلى البرودة.

قالت: «شقيقك أحب.. أحبني.. إنه..»

رد بصراحة: «لقد رغب في جسدك.. وبسبب براءته أساء فهم الرغبة وظنها عاطفة مختلفة، وهذا ما استخدمته لمصلحتك، مستخدمة لهفته لإجباره..»

قاطعته: «رويدك لحظة! إن كنت تلمح إلى أن لويجي مجبر..»

رد الصوت البارد: «أنا واثق أن لا سبيل إلى إجباره على شيء كهذا. ربما هو مأسور بجمالك.. فأنت امرأة جذابة».

أخذ يقوّم جسدها وحناياه بوقاحة:

- صحيح أنك لست من طراز لويجي المعتاد لكن مهما يكن الأمر.. أنا أدرك سبب قدومك إلى هنا.. أظننت أن مقابلة شخصية قد تكون الواقع الذي يحتاج إليه؟ فالغياب يجعل القلب يهوى شخصاً آخر.

لقد تمادت الأمور، فثمة حدود للوقت الذي تنوي فيه الوقوف هناك والسماح له بالاستمرار في إهانتها..

قالت صادقة:

- قبل أن تمضي أكثر في غيك أريد أن أقول لك إن لا رغبة عندي في الزواج بأخيك.. في الواقع..

قاطعها بعذوبة: «هيا.. لا تتوقعي أن أصدّق هذا؟ ربما عليّ إنعاش ذاكرتك. لديّ هنا آخر رسالة أرسلتها إلى لويجي. جلبها إليّ وهو في حالة ذهنية مشوشة. فالضغط المستمر الذي تدأبين عليه من أجل إعلان خطوبتكما، جعله يرتعب ولذا أفضى إليّ بسرّه».

قالت بعذوبة لاذعة: «يبدو أن لديك خبرة كبيرة في التخلص من نساء لا ترغب فيهن؟ وهذه إحدى ميزات من يكون ثرياً».

جعلها الاحمرار الذي لوّن وجهه تشعر بالرضى الشديد فلم يعجبه ما ألمحت إليه من أن النساء لا ينجذبن إليه إلا بسبب ماله ولكنها تعرف أن هذا غير صحيح. وجدت نفسها تتساءل عما إذا كان متزوجاً، ثم طمست الفكرة فلا علاقة لها بذلك.

قال لها بحقد: «يجب أن تتقبلي واقع عدم رغبة لويجي في أن تكون له معك أية علاقة ولكن إن رغبت سأفعل ما بوسعي لمنعه من الزواج بامرأة مثلك.. ما الذي جذبك إليه؟ أظنني أعرفه تماماً!».

- ولكن ظنك في غير محله.. فكما قلت، ليس لدي الرغبة في الزواج بأخيك.

- لا؟

أخرج من جيبه بحركة سريعة ورقة مطوية:

- اقرئي هذه.. فقد تساعدك على التذكر.

تناولت الرسالة منه، فلامست أصابعها أصابعه ولكن هذا التلامس أرسل ارتجافات غريبة في ذراعها.

لقد تمادت الأمور كثيراً وعليها أن تخبره الحقيقة. فتحت الرسالة، فهوى قلبها ما إن قرأت السطرين الأولين، ثم تابعت نظرها بسرعة فوق الأسطر الباقية.. إنما هذا كان كافياً لرفع حرارة حارقة إلى وجنتيها. كانت علاقة سيسلي بلويجي أعمق مما اعتقدت، وهذا واضح من خلال توسل سيسلي المشبوب عاطفة بأن يتزوجها.. ما الذي أصاب ابنة عمتها بحق الله حتى تكتب مثل هذه الرسالة؟ أحست بالغثيان لمجرد التفكير في أن عمها وعمتها قد يريان هذه الرسالة.. وماذا عن تشارلز؟ لماذا لم تحذرها سيسلي؟ ولماذا هي مقتنعة هكذا بأن لويجي آت إلى انكلترا؟ الواضح من تصرفات أخيه أنه يرغب في التحرر من تلك العلاقة بمقدار رغبتها.

قال المفترس بطريقة مهينة: أنعشت ذاكرتك.. أليس كذلك؟ لقد فهمت من لويجي أنه لم يكن حبيبك الأول.

اتسعت عينا روث من فرط الصدمة.. هل هذا صحيح؟

أضاف: «وهكذا وبعدما أدركت أن رسالتك فشلت، قررت المجيء شخصياً.. ولكنني أتساءل لماذا؟ لا شك أنك تعرفين عدم رغبة لويجي في الزواج بك».

ما هذا الذي زجتها فيه سيسلي؟

فكرت للحظة أن تقول له الحقيقة ولكن هذا سيكون خيانة لابنة عمتها.. ولقد تمادت في حمايتها الآن بحيث لم تعد قادرة على التوقف.

سمعته يقول باحتقار مرير: «ربما، بعد فشلك في فرض

الزواج عليه، تفكرين في أمر ما؟ أعرف أن لويجي أخبرك عن الزواج الذي تأمل عائلته أن يتم بينه وبين ابنة صديق لنا.. زواج، يحمل فرصة للنجاح أكبر من الذي تقترحينه.. ربما تفكرين في قلب هذا الواقع لمصلحتك.. فعائلة كلارا متزمتة رجعية التفكير، ولن تتسامح مع لويجي إن كان يلعب بذيله».

شحبت روث شحوباً شديداً.. فمدت يدها لتمسك ظهر المقعد تسند نفسها، وذلك بعدما فهمت معنى كلماته.. ثم همست بعدم تصديق:

ـ أتظن أنني سأستخدم الابتزاز؟ أتظنني جئت إلى هنا...

سخر منها الصوت البارد:

ـ مؤثر جداً.. ولكنني لست لويجي لتؤثر فيّ هاتان العينان الذهبيتان أو أصدّق براءتهما. أنت أكبر من أخي بعدة سنوات، ويبدو أنك استغليت عدم خبرته. اسمعي آنسة راندال، فلنصل إلى حل؟

ـ إن كنت تقصد بالحل دفع ثمن سكوتي فأنت تضيع وقتك سدى!

كانت غاضبة غضباً شديداً بحيث لم تهتم بالخطر المنبعث منه. مرت به تمنع دموعها الغاضبة، ثم راحت تصارع الباب الأمامي الضخم.. سمعته يتقدم منها من الوراء. جعلها الخوف الرهيب من أن يمنعها من مغادرة المكان تذعر، ارتجفت أصابعها وهي تشد الباب.

سمعته يتمتم لاعناً، ثم أحست بيده على كتفها، وكم تنفست الصعداء عندما أذعن الباب لها، وأصبحت في الشارع.. كان التاكسي بانتظارها فرمت نفسها فيه، غير مهتمة

www.elromancia.com

بالاستنتاج الذي قد يتوصل إليه السائق.. كان أول ما تبادر إلى ذهنها هو الطلب من السائق العودة بها إلى الفندق، لتتصل من هناك بابنة عمتها لتستفسر عما يجري بالضبط.

من حسن الحظ أن الليلة موعد لعبة البريدج التي يلعبها العم والعمة خارج المنزل.. ردت على المخابرة سيسلي التي سرعان ما انقلبت لهجتها إلى وقاحة فظة حالما لاحظت الغضب في صوت روث وصاحت متوترة:

- وهل قابلت سيزار؟ آه.. لا روث.. ماذا قال لك؟

إذن، اسمه سيزار، والاسم يناسبه بطريقة ما.

ردت متجهمة: لم يقل شيئاً يرضي الغرور.. والواقع أنه حسبني أنت.. آه! سيس، كان عليك أن تحذريني.. لماذا أردت أن آتي إلى هنا بحق الله! لقد قال لي سيزار إن لويجي لا يرغب في الزواج بك ولم يكتف بذلك بل أراني رسالتك.

عرفت روث من شهقة سيسلي القصيرة أنها لم تتوقع شيئاً كهذا.. مع ذلك، وتمسكاً بعادتها، حاولت أن تقلب الوضع كله إلى صالحها:

- ألم تقولي له إنه مخطىء؟

- لم تتح لي الفرصة.

- يجب ألا يعرف.. آه روث، حاولي أن تفهمي ظروفي عندما كتبت تلك الرسالة. روث.. روث.. أما زلت على الخط؟

تمتمت روث بالإيجاب محاولة إخفاء صدمتها فتابعت سيسلي:

- أنت لا تفهمين روث.. أنت حقاً قديمة الطراز، وهذا

غير مناسب! العيش كعانس متزمتة يناسبك أنت ولكنه لا يناسبني.. ثم لماذا لا أمرح متى أردت المرح؟

- وهل من المرح إقامة علاقة بلا زواج؟

سيسلي طفلة مدللة. ولكن لا فائدة من أن تعاملها العائلة بقسوة، فالضرر حدث، ويبدو أن سيسلي تعتقد أن لديها حقاً مكتسباً في إمتاع نفسها.

سمعت سيسلي تعترف بحرد:

- لا.. إنما ماذا أفعل؟ كنت مضطرة إلى مراسلته.

- تابعي كلامك.

كلما سمعت كلما رغبت بعدم الدفاع عنها.. ولكن هناك عمتها وزوجها اللذان سيتلقيان صدمة لا تحتمل إن عرفا الحقيقة.

كادت ترى هزة كتف سيسلي ولا مبالاتها.

- آه، لا شيء.. اكتشفت أن حبي له زائف.. وفي ذلك الوقت تعرفت إلى تشارلز.. هكذا..

- فكان أن طلبت مني مقابلة رجل كنت على وشك الخطوبة له.. لا أفهم سيس، لا شك أن هناك سبباً.

ران صمت طويل، تخلله مزيج من السخط والخوف، ثم اعترفت سيسلي أخيراً:

- حسناً إذن، عندما كتبت للويجي لم يرد عليّ، بل رد علي شقيقه. قال إنه يريد برهاناً أكيداً بأن عبثنا لم يكن طيشاً، بل حباً أكيداً.. يا للوحش! كانت رسالة كريهة روث، فخفت.. وكان لويجي قد أخبرني أنه وصيه وأنه رجل صارم جداً.. لذلك خفت أن يأتي إلى هنا، ليراني بسبب ما كتبته،

www.elromancia.com

فذعرت. قلت في عقلي إن قابلت أنت لويجي، وأخبرته بأنني لم أعد أريده، فسيقول هذا لسيزار و...

وستكون آمنة، إذ لن تضطر لمقابلة لويجي أو سيزار..

أضافت متوسلة: «هل فهمت الآن يا روث؟ لا أستطيع المخاطرة في قدوم سيزار إلى هنا.. فلو شاهده أبواي أو تشارلز..»

- وهكذا أرسلتني أنا إلى عرين الأسد.. شكراً!

- لم أعرف أنك ستقابلين سيزار بل لم أظن أنه سيظنك أنا.. ولكن، ما حدث كان خيراً. فالآن بعدما أخبرته بأنك لا تريدين لويجي، لن يزعجنا ثانية.. كيف هو شكله؟ لقد تصورت بعد الوصف الذي وصفه لويجي أنه أمبراطور.

ضحكت ثم أضافت: كم تمنيت لو ألتقي به.. قال لويجي إن جميع النساء كن يسعين إليه، فهو في غاية الثراء. ولقبه يعود إلى عهد فرديناند وايزابيلا.. يبدو لي مهيباً ومتكبراً بشكل رهيب.

بدا واضحاً أن سيسلي تعرف الكثير عن عائلة تريكاردوز؛ فغضبت منها، ولكنها تعرف بسبب خبرتها السابقة معها أن من غير المجدي الغضب من سيسلي.. فما الفائدة من قدوم سيسلي لمقابلة آل تريكاردوز؟ سيسلي على حق، فما حدث كان خيراً.

قالت سيسلي، وصوتها يرتعش قليلاً:

- لقد أرسل لي رسائل بغيضة، قال إنه لا يصدق أن ما كان بيننا حباً، وإنني خدعت لويجي ليتزوج بي.. على الأقل انتهى كل شيء الآن، روث..

أضافت بلهجة ملؤها البهجة: «أنا مطمئنة الآن.. على فكرة، طلب تشارلز يدي ليلة أمس، وقبلت طلبه.. والداي فوق القمر!»

فكرت روث أن ابنة عمتها ما تزال صغيرة على التفكير في الزواج، فالواضح أنها بعيدة كل البعد عن النضوج، وتشك في أن يكون تشارلز الزوج المناسب لها.. ولكنها لن تتدخل. سألت سيسلي:

- متى تعودين؟ سنقيم حفل خطوبة وأريد أن تكوني موجودة بالتأكيد.

فكرت روث بجفاء، هذه رشوة لتربح ضميرها، فلقد قامت نيابة عنها بالعمل القذر، ويجب أن تنال المكافأة. هل كان لدى ابنة عمتها أدنى فكرة عما شعرت به وهي تصغي لتستمع إلى سيزار دو تريكاردوز وإهاناته؟ لا.. ليس لدى سيسلي أي إدراك.

في اليوم التالي وجدت روث أنها في عطلة فقد خصصت هذا اليوم أيضاً لحل مشكلة سيسلي التي انتهت البارحة. هكذا قررت الخروج لاكتشاف إشبيلية.

كانت تعرف القليل عنها، تعرف أنها يوماً خضعت لحكم العرب الذين حكموا هذا الجزء من إسبانيا قروناً طويلة وأنها في العصور الوسطى كانت ذات سمعة عظيمة لأنها كانت مركز تعليم للطب..

فيما كانت تتجول في «الألكازار» العربي، وبدلاً من الاستمتاع بجماله، كانت عند كل عطفة، تتذكر بقسوة سيزار دو تريكاردوز.. فمن رجال بنوا حضارة عظيمة، كان يستمد

www.elromancia.com

عجرفته.. ولا شك أن في عروقه دماً عربياً، يبرز بوضوح رجولته الكاملة. إنسيه.. لماذا القلق على ما حدث؟ تعرف بأنه مخطىء.. ولكن لم يكن ذلك كافياً.. أبمقدورها نسيان الاحتقار في عينيه؟ أو النظرة المثيرة الوقحة التي كانت تجول بجسدها؟ ولكنه ظل في الوقت نفسه بارداً، وكأنه يقول لها: أترين؟ أعرف كل شيء عنك كامرأة، ولا يؤثر هذا فيَّ أبداً.

إشبيلية مدينة جميلة.. ولكنها لم تكن في مزاج يسمح لها بالاستمتاع بجمالها، فكلما نظرت إلى مكان تذكرت سيزار دوتريكاردوز. كان تاريخ أجداده فخراً واعتزازاً.. وليس في إشبيليه إلا قلة من الناس لا يحملون الدم العربي، وبعض التشدد البداني الشرس، ورثوه عن أسلافهم. إنهم جنس، حتى وهم يترعون كأس النعيم، ظلوا محافظين، يعرفون أن النعيم يرافقه الألم..

سرت روث لأنه حان وقت الذهاب لمقابلة آنسون.. بدا لها سالماً صلباً، وهو يقترب منها حاملاً حقيبة أوراقه.

احتضنها بعطف ودفء:

ـ روث! هل أنهيت كل شيء؟

ـ أظن هذا.

جعلتها راحته البادية على ملامحه تضحك فقال.

ـ أحمد الله على هذا! خشيت أن أرى بين يديك محبا لاتينياً باكياً.

قارنت روث للحظة هذه الصورة بسيزار وتساءلت عما إن كان لويجي يشبه أخاه المهيب.. ربما لا.. لا تتصور أن سيزار قد يسمح لأحد بالتلاعب به، كما تلاعبت سيسلي

بلويجي..

ـ روث؟

نهرت نفسها، توقفي عن التفكير فيه. ثم أمرت نفسها بالتركيز على آنسون.. إنها في إشبيليه للعمل، لا لتشغل نفسها بحياة رجل ليس هو بالنسبة لها إلا غريب. ولكن ويا للأسف شعرت منذ وقعت عيناها عليه بشيء ما لا تفهمه. ففيه رغم عجرفته وتكبره شيء من السحر، رجولة كاملة، وهالة خطيرة، تذكرها بتمر يتربص بفريسته.

كان آنسون متعباً بعد السفر فقرر أن يتعشى في غرفته، وينام باكراً..

سأل روث: «هل ذهبت إلى مركز المعارض؟»

هزت رأسها نفياً، فتابع:

ـ على أي حال، لا يفتح المعرض أبوابه قبل الغد.. لدينا موعد مع شركة تريكارتكس بعد الغداء.. اتركي أصابعك متشابكة، طلباً للحظ.. لقد صممت كل أزياء الموسم القادم وأقمشتهم في ذهني.. فإن كان قماشهم كقماش الموسم السابق فهذا يعني أننا سنربح.. خاصة إن أعطونا الحق الحصري لها في انكلترا.

سألته وهما يدخلان بهو الفندق:

ـ كم تعرف عنهم؟

ـ القليل. أعرف أن رئيس مجلس إدارة الشركة يختار زبائنه بنفسه، وأعرف أن الشركة شركة عائلية صغيرة..

توقف قليلاً ثم أضاف مغيراً دفة الموضوع:

ـ سررت لأنك أنهيت الموضوع المتعلق بسيسلي، يا لها

من فتاة متعبة! لماذا عليك أن تركضي وراءها؟.

ردت عليه وهما يتجهان إلى المصعد:

ـ حسناً.. لن أركض كثيراً بعد الآن.. فقد تمت خطوبتها على رجل.

ـ فليكن الله بعون ذلك الرجل!

توقف المصعد في الطابق الذي يقيمان فيه، ثم ذهب كل منهما إلى غرفته.

في غرفتها، حاولت التركيز على معرض الأقمشة.. ولكن قسمات سيزار دوتريكاردوز النسرية لم تبرح خيالها.. قررت النوم باكراً، وكانت على وشك الإغفاء عندما سمعت قرعاً على الباب.. سمعت صوت آنسون ينادي:

ـ روث أما زلت مستيقظة؟ أحس بأفظع سوء هضم.. ألديك ما أتناوله؟

توجهت إلى حقيبتها متنهدة وفيها وجدت بعض الأقراص.. عيب آنسون أنه كثير الوسوسة بأن لديه عسر هضم ميؤوس منه، ولكنه يرفض حتى أن يحمل ولو قرص أسبرين معه.. اعتادت روث على ذلك منه لذا راحت تحمل معها دوماً ما وصفه بصيدلية صغيرة.

فتحت الباب وأعطته القرص.

ـ أنت ملاك!

انحنى إلى الأمام يلثم وجنتها بخفة.. وعندما كان يقبلها لمحت روث شخصين يتقدمان آتيين عبر الممر.. المرأة صغيرة الحجم، شعرها أسود، ترتدي ملابس السهرة. أما مرافقها فرجل طويل شعره كجناح الغراب ووجهه كوجه نسر وهذا

الوجه جعل قلب روث ينقلب رأساً على عقب.

سيزار دوتريكاردوز! ماذا يفعل هنا؟ ومع من؟

شحب وجهها وهو ينظر إليها باحتقار، فجأة أحست بشفافية غلالة نومها، وبشعرها المشعث.. ثم انتبهت إلى أن آنسون يلثم وجنتها ويحتضنها. تورد وجهها لأنها أدركت التفسير الذي سيفسر به سيزار دوتريكاردوز وقفتهما الحميمة هذه، ثم وبخت نفسها على شعورها بالإحراج.. لماذا تهتم به وبرأيه؟ ما شأنه في هذا؟ مع ذلك بدا لها أن نظرته الفولاذية تخبرها بأنه يعرف كل شيء عنها، ويشك في أن تكون دوافعها مع آنسون أقل مما اتهمها به مع أخيه.

سألها آنسون عابساً: «روث.. هل من خطب ما؟ تبدين متوترة منذ وصولي.. هل السبب ابنة عمتك اللعينة تلك؟»

ـ لا أبداً. أنا متعبة قليلاً.. سأكون على ما يرام صباحاً.

* * *

٣ ـ كيف يعاقب الكونت؟

لم يكن ما قالته صحيحاً بشكل كامل إذ شعرت بتوتر غريب في الصباح التالي، فعضلاتها راحت تتشنج كلما دخل أحد إلى غرفة الطعام، حيث كانت وآنسون يتناولان الفطور.

ما أشدَّ ما ستكون فرحتها بالعودة إلى الوطن.. وثبت أعصابها للمرة الثالثة، لدى رؤيتها رجلاً أسود الشعر.. يا للمتعجرف المتوحش! لم يدع لها فرصة لتشرح له، بل اتهمها وكأنها أنثى مفترسة تريد الانقضاض على شقيقه.. فكرت في ما عرفته من سيسلي فذعرت. كيف لابنة عمتها أن تتصرف بهذه الطريقة الخالية من المبادىء؟ طالما مالت للتوحش ولتجاهل أية محاولة لشكم طبيعتها الحرون.. أما أن تحاول إجبار شاب على الزواج فهذا كثير. ولكن ذلك ليس عذراً ليكلمها سبزار بتلك الطريقة.

انتزعها آنسون من أفكارها مجدداً وردها إلى الغرض الحقيقي من زيارتها لإشبيليه.

ـ حان وقت الذهاب إلى المعرض.

بعد نصف ساعة كانا هناك ضائعين في روعة القماش والإعجاب به..

تمتم آنسون لها:

ـ تحسسي هذا القماش.. إنه ناعم كالحرير.

ـ وهذا «التويد».. أعتقد أن الصوف من أميركا الجنوبية.

ـ لدى الإسبان صلات عائلية مع أميركا الجنوبية، وأعتقد أن من الطبيعي أن يستغلوا مثل هذه الصلات لأغراض تجارية..

جذب اهتمام روث إلى معروضات الشركة التي قدما لرؤية مديرها.

ـ إنها فريدة من نوعها. وهذه الألوان!

ـ إنها رائعة حقاً.

عندما غادرت الكلية، كان هدفها الأول إيجاد عمل في مجال التصميم، مع أحد أكبر المصانع.. ولكن يصعب وجود مثل هذا العمل. ومع أنها تتقن لغات عدة، وجدت أن المؤسسات الأوروبية تفضل استخدام خريجي كلياتها.. والعمل في الأقمشة في مراحلها البدائية، أصبح لها الآن مجرد حلم.

كان هناك حشد حول معروضات تريكارتكس لذا مضت عدة دقائق قبل أن يتمكن آنسون من التحدث إلى الشاب المسؤول. شرح له الغرض من وجوده في إشبيليه، وأبرز له رسالة الاعتماد التي حملها معه، أما روث فكانت تترجم الحديث الدائر بينهما.

أجاب الشاب بأسف:

ـ من سوء الحظ أنني واحد من الموظفين.. ولكنني سأذكر بالتأكيد هذا إلى المسؤول.. ألديك رقم هاتف للاتصال

www.elromancia.com

بكم؟

أعطاه آنسون بطاقته، ورقم هاتف الفندق، ثم أعلن أن الوقت حان لتناول الغداء.. قرر كعادته أن يختار أحد أفخم المطاعم.

كانت ترتدي أحد أزيائه الجديدة التي اجتذبت عدة نظرات إعجاب من الموجودين هناك، أما آنسون فكان يبتسم بإشراق بسبب الاهتمام الذي يحظيان به.

ولكنه خلال الغداء، كان جاداً.

- أتمنى على الله أن أتوصل إلى اتفاق ما مع تريكارتكس.

- وسيكون ذلك حدثاً رائعاً.. فأقمشتهم مذهلة، إنما لن تكون نهاية العالم إن لم تحظ به.. صحيح؟

رد متجهماً: «ممكن.. فلم تكن تجري الأمور على ما يرام في السنتين المنصرمتين. الأثرياء الذين ينفقون الأموال على الأزياء الفاخرة يقلّون يوماً بعد يوم.. ونحن في بريطانيا لا ننتج أقمشة رفيعة المستوى.. لأقمشة تريكارتكس سمعة عالمية، ولو استطعنا استخدامها لأزيائنا لازدادت مبيعاتنا.. ولقد تلقيت طلباً من الأميركيين، شرط أن نستخدم أقمشة تريكارتكس.. لقد سمعوا أننا نسعى إلى شيء كهذا، فعرضوا عليّ عقداً ممتازاً. سيكون في هذا العقد مكاسب للبدء بإنتاج ملابس كلفتها أقل من كلفة ملابسنا الحالية».

ما قاله مفهوم، فروث تعرف عن عالم الأزياء ما يجعلها تعلم أنه لا يبالغ. إن العديد من دور الأزياء الكبرى تتراجع أمام المصممين الساعين إلى الساحة، وهذا ما يحدث منذ عدة مواسم، لكنها ببساطة تعود للاختفاء. أحست بأصابع ثلج

تتلاعب بظهرها لإدراكها أن آنسون قد يعاني من مصاعب مالية.

قال آنسون بعد انتهاء الطعام:

- حسناً! فلنرجع إلى المعرض لنرى إن كان هناك ما نعود إليه إن لم نبرم عقداً مع تريكارتكس.

- ترى كيف استطاعوا مزج هذه الألوان؟

- لا أدري. سمعت أنه سرّ محفوظ. قيل إن رئيس مجلس الإدارة هو في الوقت نفسه المصمم وخبير الألوان..

كان ما رأياه في المعرض غير مثير للاهتمام إذا ما قورن بمعروضات تريكارتكس، مع أن روث وجدت أن بعض الجلد اللين والأصواف قد تكون مثيرة لهما.. فمنذ بعض الوقت كانت تحاول إقناع آنسون بتصميم أزياء للشباب.

بعد العشاء بفترة تلقى آنسون رسالة تفيد أن هناك اتصالاً من تريكارتكس.. فقال بعدما أنهى الرد على المكالمة:

- تمت المرحلة الأولى بنجاح على الأقل! لقد تحدثت إلى رئيس مجلس الإدارة، ووافق على مقابلتي غداً. شرحت له أن مساعدتي برفقتي، وقد رتب لنا أمر جولة في المصنع على أن نتحدث بعد تلك الجولة.

لن تكون ضمن اجتماع المحادثات بالتأكيد ولكن لن يصعب عليها إشغال نفسها مدة ساعتين. ستستمتع برؤية كيفية صنع هذه الأقمشة.

مع أن آنسون لم يقترح عليها شيئاً، فقد ارتدت ملابسها بعناية فائقة من أجل الزيارة.. اختارت زياً من تصميمات آخر موسم لهما.. بلوزة حريرية بلون العاج وبذلة مخملية خمرية اللون، ذات كمين ضيقين. أما التنورة فمثناة في طيات

مسترسلة من خصر ضيق وهذا الزي يليق بها كثيراً.

وهذا ما رآه آنسون كذلك، لأنه ابتسم سعيداً عندما شاهدها:

- يليق بك كثيراً. السترة أشبه بسترة مصارع الثيران، وهي مناسبة لهذا الجزء من العالم.

أشارت إلى بذلة التويد التي كانت واحدة من المجموعة:

- فكرت في بذلة التويد.. ولأنها لا تتنافس جيداً مع قماشهم.. فكرت.

- أنت على حق.. والآن. طلبت سيارة أجرة ولكن لدينا وقت كافٍ لاحتساء فنجان قهوة.

يقع المصنع خارج إشبيلية وهو حديث بشكل مدهش. قريب من الطرق الرئيسية ومن التسهيلات الأخرى.. ما إن ذكر اسميهما للحارس حتى فُتحت البوابات لتسمح للسيارة بالمرور.

استقبلهما في البهو شاب وسيم بشوش الوجه أسود الشعر، يرتدي ثياباً رسمية سوداء. ذكر أن اسمه سيمون ڤيرودا ثم قال لهما إنه سيرافقهما في جولتهما على المصنع.

قال شارحاً: «إنه لمن سوء الحظ ألا يستطيع الكونت مرافقتكما بنفسه، ولكنه سيكون حراً لتناول الغداء برفقتكما».

نظر إلى روث بإعجاب: اعذريني إن حدقت إليك.. لكننا لم ندرك عندما ذكر السنيور سارجنت مساعداً أنه يقصد امرأة شابة مثلك، وأخشى أن تجدي العمليات الكيماوية في المصنع مملة..

قاطعه آنسون ضاحكاً: «أبداً».

كبتت روث بعض الغضب الذي ولدته ملاحظة مرافقهما المتعصبة.. لكن هنا في هذا البلد تقنع النساء باتخاذ المقاعد الخلفية، ليعشن حياتهن خاصة في العائلات الثرية.. ولا شك أن امرأة، كزوجة سيزار دوتريكاردوز هذا إن كان له زوجة، لن تحلم أبداً في التدخل بشؤون زوجها، أو طرح سؤال عنها. لقد ترعرعت النساء هنا لتكن مطيعات قانعات بالعيش مع عائلاتهن وفي بيوتهن.

أضاف آنسون يقول للدليل:

- ستجدونها أعرف مني بعمليات التصنيع. الواقع أنني أشك في أنها تفضل تصميم القماش على تصميم الثياب..

قالت روث صادقة: «كلاهما يسحرني!»

مرت الساعتان التاليتان بسرعة.. كان أمامها متسع من الوقت للمشاهدة.. فالمصنع أكثر المعارض حداثة.. كانت المعدات حديثة متطورة بالنسبة لها فاستغربت التقدم التقني الحاصل منذ تركت الجامعة.

عندما سألت سيمون عن كيفية إنتاج ألوانهم الرقيقة الدقيقة، ردَّ أنهم باختصار يستخدمون صباغاً طبيعياً من الأعشاب والخضار.. فتابعت ضغطها عليه:

- ولكن هناك بالتأكيد مشاكل لتثبيت مثل هذه الألوان؟

ابتسم لها وهز كتفيه:

- هذا صحيح.. نحن محظوظون لأننا اكتشفنا طريقة لتثبيتها ولكنني لا أستطيع القول كيف، تفهمين هذا.

سألت: «وماذا عن إنتاج الموسم القادم؟ أنستطيع..»

هز سيمون ڤيرودا رأسه مرة أخرى: «هذا أمر يقرره

الكونت».

نظر إلى ساعته:

- سأرافقكما في العودة إلى البهو.. يكاد يحين وقت الغداء.

نظر إلى روث: «كنا ننوي الغداء معاً ولكن كما سبق أن شرحت أننا توقعنا أن يكون مساعد السنيور سارجنت رجلاً».

أغضب قوله روث.. فقالت بثبات:

- سأحب مشاركتك الغداء.. هناك عدة نقاط أود الاستفسار عنها بالنسبة لعملية التصنيع، كالمشاكل التي قد تواجهكم في المحافظة على جودة الصوف..

وصلوا إلى البهو، وتقدم سكرتير أنيق أسود الشعر ليرافق آنسون إلى جناح المدير العام الخاص تاركاً روث مع سيمون متردداً.

ما أدهشها أنه صحبها إلى سيارة، شارحاً أنهم رغم وجود مطعم في المصنع يتبعون نظاماً مماثلاً للنظام الياباني بأن يتناول كل العمال الطعام معاً.

وأضاف: «الطعام ممتاز، ولكن الجو لا يسمح بنقاش جاد. على أي حال هناك مطعم لا يبعد كثيراً عن هنا».

- والمدير العام؟

- له غرفة طعام خاصة في جناحه، يستخدمها ليستقبل الزبائن الذين يدعوهم إلى الغداء.

لم يكن المطعم بعيداً. كان يوماً مكاتب شحن لتصدير البضائع، وتحول إلى مطعم. عندما دخلا لفت نظرها سقفه المقوّس.

قال لها سيمون وهما يجلسان ان هناك سراديب للتخزين تحت الأرض.

- تقريباً، لكل منزل في إشبيليه سرداب تحت الأرض، وهذا إرث ورثناه عن العرب وهي أماكن آمنة وملاجىء.

ارتجفت روث وعلقت: «وسجون».

- وهذا أيضاً.. هل ترهبك الفكرة؟ اضطرت معظم العائلات الإشبيلية إلى الالتجاء إلى هذه السراديب، لسبب أو لآخر، في وقت ما من تاريخها.

- هذا جزء ساحر من إسبانيا.. خليط حقيقي بين الشرق والغرب.

- لكن النتائج لم تكن سعيدة دائماً.. فطبائع العرب تميل إلى التفاخر والمحافظة، ومن يملك في عروقه دماً عربياً، متكبر فخور، ولكن لم يكن الأمر هكذا دائماً. ففي عهد المحاكم الدينية في القرون الوسطى، كان يوقع على كل من يملك دماً عربياً حكم الإعدام.

- وهل لديك أسلاف عرب؟

هز رأسه: «لا.. فعائلتي من الشمال ولكن نسب الكونت يعود إلى فارس ملحق ببلاط «بيدرو الظالم».. ويقال إنه اغتصب ابنة عدوه، مع أن هناك أسطورة في عائلة الكونت تقول إن هذا غير صحيح، وإن ابن عم الفتاة أغواها، وخوفاً من والدها ألقت اللوم على ألد أعدائه، وبدل أن يتحمل اسمه الشريف وزر الفتاة عرض عليها الزواج. هذه هي القصة التي تتناقلها ألسنة أسرة الكونت.

ما يقوله أقرب ما يكون للحقيقة. بإمكانها رؤية وميض

العينين السوداوين وهو يواجه الإتهام بالجريمة.. هزت رأسها.. ما الذي حل بها؟ تصورت لبرهة في عين تفكيرها سيزار دوتريكاردوز، المتهم الغاصب.. يجب عليها فعلاً أن تتوقف عن التفكير في هذا الرجل. ما خطبها؟ إنها تتصرف كالمراهقات؟ وهي إن كانت تملك شعوراً ما تجاهه فهو لا يتعدى الازدراء.. ولكنها عندما رأته واقفاً يلقي عليها تلك الكلمات الفظيعة الكريهة لها، تاقت إلى الاعتراف بالحقيقة لتراه مبتسماً لا عابساً.

كان سيمون ڤيرودا مرافقاً مسلياً فقد أجاب عن أسئلتها جميعها برضى ووضوح.. قال إن المشروع كله وليد فكرة الكونت في صغره وقد تكونت الفكرة عندما كان في أميركا الجنوبية يعمل في «راتشو» أي مزرعة عرّابه، ومن هناك يستورد حالياً الصوف. يقال إن عرّابه، السنيور سيغورزا، يرغب أن تكون الشراكة حميمة، فلديه ابنة ستكون زوجة رائعة للكونت.. سامحيني، ما كان عليّ أن أقول هذا.

سارعت تطمئنه:

ـ لقد نسيت أنني سمعت منك شيئاً.

عندما عادا إلى المصنع، اعتذر منها:

ـ أنا مضطر إلى تركك بمفردك لبضع دقائق.. لن يتأخر السنيور سارجنت كثيراً.. سأتركك بين يدي جاسمين القديرة.

جاسمين هي السكرتيرة التي أتحفت روث بابتسامة وعرضت عليها القهوة.. لم تكد الفتاة تغيب عن العين حتى انفتح الباب خلف مكتبها فجأة:

ـ جاسمين..

انخلع قلب روث من مكانه لأنها تعرفت إلى الصوت، لكنه كان أقل تجهماً مما سمعته آخر مرة. كانت تهم بالنهوض عن مقعدها فلما سمعت الصوت جفّ الدم من وجهها. ما إن استدار سيزار دوتريكاردوز، وشاهدها حتى عبس وهو لا يكاد يصدق ما يراه.

تمتم غاضباً: «ديوس؟ وهل تلاحقينني إلى هنا؟ ألا كرامة لديك؟ ألا حياء لديك؟ قلت لك بصراحة يا سنيوريتا إن أخي لا يهتم بك. لن تجديه هنا فهو مسافر، يزور عائلة «الناڤيا» أي عروسه العتيدة.. فتاة شابة من عائلة رفيعة المستوى، تفضل الموت على الطلب من الشاب الذي تعرفت إليه صدفة وعاشرته بلا زواج أن يتزوجها».

ردت كلماته الأخيرة، اللون الأحمر إلى وجه روث:

ـ وهل أرسلته بعيداً لئلا.. يراني؟

ـ أبداً.. إذ لم أكن على علم بقدومك.. على أي حال أنا واثق أنني لوفعلت لشكرني لويجي لأنني أنقذته من مواجهة بغيضة.. ما الذي تأملين منه بقدومك إلى هنا؟ إجباره على تغيير رأيه وحثّه على عرض اسمه عليك.. اسمنا؟

قبل أن ترد روث انفتح الباب مجدداً، وخرج آنسون الذي ابتسم لها:

ـ آه!.. روث عزيزتي، لقد عدت..

التفت إلى الكونت مبتسماً:

ـ كونت، اسمح لي أن أعرّفك إلى مساعدتي، روث هذا هو الكونت دوتريكاردوز، رئيس مجلس إدارة تريكارتكس.

رأت روث أن سيزار بدا دهشاً مع أنه استطاع إخفاء صدمته

www.elromancia.com

أسرع مما استطاعت:

ـ هذه مساعدتك التي ما فتئت تتكلم عنها بكل تقدير؟

إنه رئيس مجلس إدارة تريكارتكس! إنه الشخص الذي يعتمد عليه مستقبل نجاح آنسون! غاص قلبها.. فهي لا تتصوره يوافق على ما له علاقة بها، ولو من بعيد..

قال آنسون بسعادة: «أجل.. هذه هي روث.. الكونت، كالسنيور ڤيرودا، توقع مساعداً رجلاً».

ردت بجفاء: «ربما لأنني امرأة، يفضل رؤيتي محبوسة خلف بوابة مقفلة.. أو وراء باب في أحد أقبية إشبيليه المتعددة».

مع أن آنسون ضحك، إلا أنها عرفت من ارتعاشة عضلة في فك الكونت أنه فهم قصدها.

قال آنسون: لقد دعاني الكونت للعشاء معه هذا المساء.. إذ لم نناقش كل شيء حتى الآن.

خفق قلب روث.. هل سيتأثر قراره بعدما عرف من هي مساعدة آنسون؟ لا، لن يفعل فلأنه رجل أعمال لن يسمح لمشاعره بالتحكم في قراره بل سيترك لعقله ذلك.. مع ذلك، لم تستطع إلا تذكر ما قاله سيمون ڤيرودا عن عائلته، وعن تكبره. فهل يرفض طلب آنسون واقتراحاته بسببها؟

عادت جاسمين حاملة فنجان قهوة. أخذته روث ممتنة لأنها وجدته عذراً يبعدها عن عيني سيزار دوتريكاردوز المريرتين..

لكنها سمعت آنسون يقول:

ـ روث هي مساعدتي المميزة، لأنها تتقن عدة لغات

بطلاقة.

أدركت أن الرجلان يتكلمان عنها، ثم سمعت سيزار يرد:

ـ أنت محظوظ جداً.. أعتقد أنك قلت لي إنها مؤهلة وبارعة في تصميم القماش وتصنيعه؟

ابتسم آنسون: «أجل.. في الواقع أن القماش حبها الأول.. ولكنك تعرف أنه ليس لدينا في بريطانيا ما ينافس تريكارتكس».

ـ ذكرت أنك تود استخدام الهاتف.. فإن أردت رافقتك سكرتيرتي التي ستساعدك في اتصالاتك.

عندما لحق آنسون بجاسمين كادت تتوسله لئلا يتركها بمفردها مع سيزار دوتريكاردوز، الذي راح يراقبها ببرود حالما انفرد بها.

ـ يا لها من مصادفة.. مصادفة تجعلني أكثر من مرتاب بدوافعك.. كنت تعرفين عندما التقيت لويجي أن له علاقة بشركة تريكارتكس، ومن هذا، استنتجت دون شك أنه ثري.. ورغم تبجحك الأنثوي واستقلاليتك، لا أجدك مختلفة كثيراً عن نسائنا من حيث سعيك إلى رجل يدعمك ويسهل لك خطواتك في الحياة.. مع أنك عكسهن تفتقرين إلى الصدق وإلى الميزات التي قد تجعل الطعم مغرياً، خاصة للإسباني الذي يتوقع أن تكون عروسه نقية طاهرة. لا أستغرب تركيزك على ولد مثل لويجي ما زال صغيراً عديم الخبرة.. لكنك ستكونين غبية إن صدقت حقاً أن لويجي يتزوج امرأة مثلك.

طارت يدها التي لم تستطع السيطرة عليها.. كانت على استعداد لفعل أي شيء في سبيل محو هذه الابتسامة الساخرة

المثيرة للسخط.. لكن ما إن لامست راحة يدها الخد الأسمر النحيل، حتى اجتاحتها موجة احتقار ذاتي. ما الذي دهاها؟ لم يسبق لها أن صفعت أحداً.

بدا أن سيزار دو تريكاردوز يشاركها الصدمة. لامست أصابعه اللحم الأحمر على خده، وازداد اسوداد عينيه بغضب أرعبها، لكنها رفضت التجابن.

بدا الاحتقار واضحاً في كل خطوط وجهه الأرستقراطي:

ـ ديوس، أيتها الأنثى المشاكسة! لم يصفع أي إنسان أحد أفراد أسرة تريكاردوز ونجا من العقاب!

تحرك بصمت ورشاقة ليمسك بمعصميها، يثبتهما بأصابع قوية انغرزت في لحمها الطري.. حاولت أن تجذب نفسها بعيداً عن آسرها. جذبها إلى الأمام، وارتفعت الأصابع الممسكة بمعصميها إلى كتفيها. كان الغضب يتطاير من عينيه الرماديتين القاتمتين، وأخذت العدائية المشتركة تتفاعل بينهما.

سمعته يتمتم، ثم أصبحت بين ذراعيه.. كان عناقه لها أسوأ نوع من العقاب فقد جعلها تشعر بأنها ليست أكثر من غبار على قدميه. راعها أن يكون لمثل هذا العناق الرهيب القدرة على تحريك التجاذب الكيماوي بينهما، فقد شعرت برجولة سيزار دوتريكاردوز كما لم يسبق أن شعرت تجاه أي شخص آخر.

كانت البذلة الفاخرة وقميصه الحريري نسيج التمدن الواهي الذي يخفي وراءه طبيعة رجل غاز كأسلافه.. وكان يستمتع بقوته الجسدية ليعاقبها..

لانت حركاتها رغماً عنها وارتجفت قليلاً أمام هجومه الصاعق ولكنه سرعان ما ارتدَّ عنها.. وقال ساخراً:

ـ لست أخي سينورا راندال، فدفء جسدك المرتعش يتركني بارداً، خاصة وأنا أعرف أنني لست الرجل الأول الذي ذاق دفئه وعذوبته.

ابتعدت عنه مرتجفة وردت غاضبة:

ـ يا لك من منافق! أتتوقع فعلاً أن تكون زوجتك عندما تتزوج نقية كالثلج.. فيما أنت أبعد ما يكون عن الطهارة؟

ـ أيمكن أن تعطي كماناً من صنع «ستراديفاري» أو بيانو من صنع «بتشستين» إلى مبتدىء؟ لا تشغلي بالك بالمرأة التي ستكون زوجتي، سينورا راندال.. أنت وهي من عالمين مختلفين في كل شيء.

صاحت به، وقد أحست بجرح، لاعلاقة لها به:

ـ مثلي ومثل الفتاة التي سيتزوجها لويجي؟ كيف تعرف حقاً أن لويجي يريد الزواج بها؟ كيف تعرف أن الأمر ليس فكرتك فقط؟

ـ يا إلهي! هل أخبرك لويجي هذا بنفسه؟

ردت بعناد وهي لا تعرف لماذا تهاجمه هكذا:

ـ ربما لأنك تصرّ عليه.. ربما يجب أن أتصل به شخصياً، لأكلمه..

ـ أبداً! لن أسمح بهذا!

بدا حقوداً لا يمكن ثنيه عن عناده، أحست بشيء من الخوف.. لماذا، بحق الله، تهاجمه هكذا؟ تعرف أنها لا تنوي قول شيء للويجي، مع ذلك بدا أن هناك ما يدفعها لذا قالت

www.elromancia.com

بلا اكتراث:

- لن تستطيع منعي.

ذعرت عندما رأت نظرة الغضب المستعرة في عينيه، ذلك الغضب الذي عجز عن السيطرة عليه.. ثم سأل وقد سيطر على أعصابه بطريقة رهيبة:

- أتجرؤين على التحدي؟ أنت لست مدللة فقط، بل حمقاء أيضاً!

* * *

٤ ـ لا ملجأ من عواطفه

قال آنسون بلهفة للمرة الرابعة:

- أواثقة أنك ستكونين على ما يرام؟

تنهدت روث: أنت خارج للعشاء ولن تتركني على عتبات المشغل.. سأكون على ما يرام بالتأكيد. فما الذي قد يصيبني بحق الله؟

كانت الساعة الثامنة والنصف عندما خرج آنسون إلى موعد العشاء مع سيزار دوتريكاردوز.. بعد خروجه ارتدت روث في مقعدها وذلك في مقهى الفندق، تحاول الاسترخاء.

كانت أعصابها كرفاص مشدود منذ تركا المصنع.. وكانت حائرة أتخبره بأنها عرفت الكونت من قبل أم تلوذ بالصمت.

لن يحرم سيزار دوتريكاردوز آنسون من العقد بسببها؟ ولكنها رأت في عينيه قبل أن يصل آنسون لينضم إليهما نظرة تقول إنه قادر على القيام برحلة إلى الجحيم إن ظن أنه بذلك يعاقبها.

وهل من طريقة يعاقبها فيها أفضل من تعريض عمل آنسون للخطر؟ ليس ببعيد أن يتخلى آنسون عنها لهذا السبب، وهناك

www.elromancia.com

تكمن مشكلة أخرى لأنها رغم مؤهلاتها وخبرتها لن تجد عملاً مماثلاً.

وجدت نفسها تتذكر عناق سيزار.. وهو عناق لم يعن له شيئاً عاطفياً بل كان دليل كراهية وإدانة.

صعدت إلى غرفتها قبل عودة آنسون ثم ابتهلت إلى الله أن يسير كل شيء على ما يرام.. لقد كان مفعماً بالتفاؤل لدى خروجه وتأمل أن يكون تفاؤله في محله.

- إذن.. كيف سارت الأمور ليلة أمس؟

رفع آنسون رأسه عن طعام فطوره، وبدا أنه تجنب عينيها.

- بشكل جيد.. بدا الكونت مهتماً بعرضي.

- هل وافق إذن؟

- مبدئياً.. مع أنه وضع شروطاً محددة..

- هذا متوقع نظراً لسمعة شركته.. ما هي الشروط؟

لم يتكلم آنسون للحظات، ثم ما لبث أن نظر إليها بمزيج من التردد والتوسل.. فازدادت توتراً وأرسل الخوف الدم حاراً في شرايينها.. لا شك أن سيزار اشترط عليه طردها حتى يبرم معه العقد!

قالت بهدوء: أيريد منك أن تطردني؟ آه! أنا..

- لا.. لا.. ليس الأمر كما تقولين.. بل العكس.. يبدو أنهم يجدون صعوبات في التصميم لمجموعة الأقمشة التالية.. والكونت يعمل على هذا بنفسه، بمساعدة مصمم آخر، ولكن هذا المصمم تركهم وذهب يعمل مع شركة منافسة لشركتهم. يتوق الكونت إلى إتمام العمل في الوقت المحدد لذا طلب مني أن أوافق على أن تعملي عنده حتى ينهي هذا.

لم تتوقع روث البتة ما سمعته! ظلت روث عدة دقائق مذهولة ذهولاً جعلها تعجز عن التفوه بكلمة.

- أرأيت.. أخطأت في ما قلت. لقد بدا متأثراً عندما ذكرت أمامه مؤهلاتك.. وفي أثناء وجبة العشاء سألني عن بعض التفاصيل المتعلقة بك.. أين درست؟ ومنذ متى تعملين عندي؟ يجب أن أعترف أنني لم أفهم ما ترمي إليه أسئلته تلك.. لكن يبدو أن سيمون ڤيرودا أخبره عن براعتك وكثرة اطلاعك، فأسرّ لي بالوضع الصعب الذي يواجهه.

أحست بشيء من الارتياب:

- ولكن لا شك أن مؤسسة تريكارتكس قادرة على الحصول بسهولة على مصمم شاب.

لماذا يريد منها سيزار أن تعمل عنده؟ خاصة بعدما أوضح مدى احتقاره لها ومدى عزمه على إبعادها عن أخيه؟

قال آنسون يرد عليها: «بكل تأكيد، ولكنه على ما يبدو يكره أن يستخدم شخصاً على أساس دائم في هذه المرحلة، كما اعترف أمامي أنه يصعب عليه إيجاد مصمم بارع يرضى بالعمل مؤقتاً.. إن للكونت أخاً قد يحل في النهاية محل المصمم الذي رحل، لكنه بحاجة الآن إلى من يساعده على الانتهاء من العمل لهذا الموسم.. إنه لشرف عظيم لك أن يطلب منك العمل عنده، خاصة وأن ذلك لن يكون إلا لأسابيع معدودة. أما وظيفتك عندي فمحفوظة فنحن لن نستطيع القيام بشيء للموسم القادم ما لم نعرف ما هي الأقمشة التي ستنتجها شركة تريكارتكس».

سألته عابسة: «وهل عقدك وقف على موافقتي على

العمل؟»

لم تفهم سبب وضع الكونت مثل هذا الشرط، ولكنها لا تظن أن الشرط لمصلحتها.

قال آنسون بقلق: «ليس بالضبط.. لكنني أشك في موافقته إن رفضت..»

وترك الجملة بدون أن ينهيها، لكنها تعرف أن الكونت الذي لا تعرفه إلا منذ فترة قصيرة قد ضغط كثيراً على رب عملها.. ورغم ولعها بالقماش لم ترغب في العمل عند سيزار دوتريكاردوز.. لكن لو رفضت، فقد تتداعى مؤسسة آنسون. وعندئذ ماذا تفعل؟

سألها آنسون متردداً: «ما الأمر؟ ظننتك ستتمسكين بالفرصة».

ردت، بشيء من الصدق: «إنها مفاجأة. حتام عليَّ البقاء في إسبانيا؟»

ـ لست واثقاً.. إذ سنتفق على التفاصيل مع الكونت. بالمناسبة أشار إلى أنه مستعد لدفع راتب مرتفع لك مقابل عملك.

رددت في نفسها بسخرية: وهذا ما سيفعل.. فكرت في لحظة طيش أن تقول لآنسون ما يفعله بوظيفته وبالمال. ثم تدخل التعقل فردها إلى أرض الواقع. إنها فرصة ذهبية ستخولها تعلم أشياء كثيرة..

سمعت آنسون يقول بلهفة مفسراً ملامح وجهها بطريقة صحيحة:

ـ ستقبلين؟

ـ لا أرى أن أمامي خياراً.

ـ جيد! سأتصل بالكونت وأبلغه الخبر السار. لا شك أنه راغب في محادثتك من أجل إتمام كل الترتيبات.

رددت بسخرية: «بلا شك!»

إنها تتصور العجرفة التي سيتبناها سيزار ما إن يعرف بموافقتها على اقتراحه.

أرسلت بذرة شك صغيرة جذورها في عقلها الباطن تحذرها من أنها ستندم على ضعفها هذا.. ولكنها تعرف أن سيزار لن يستطيع أكثر من تحويل حياتها إلى بؤس بانتقاداته الساخرة وبنظرته المليئة بالاحتقار ولكنها سرعان ما ستظهر مدى مناعتها ضد كل محاولاته.

كانت روث قد وقفت تحت ماء الدوش عندما سمعت قرعاً على باب غرفتها.. ولأنها ظنت أن القادم هي الخادمة التي تحمل إليها الوجبة الخفيفة التي طلبتها وضعت على كتفيها روب الحمام وفتحت الباب بسرعة.

ولكن لم تكن الخادمة هي الواقفة بالباب، بل سيزار دوتريكاردوز الذي نظر إليها منتقداً وهو يقف غير مكترث وعيناه تحدجانها ببطء من رأسها إلى أخمص قدميها.

ـ ظننتك خادمة الغرف.. أنا.. ماذا تريد؟

ـ أريد محادثتك.. أخبرك آنسون باقتراحي؟

ـ تريد التحدث عن هذا؟ لكن آنسون أخبرني أنك ستتصل هاتفياً.. على الأقل..

قاطعها: «هل ستدعينني للدخول أم تفضلين أن يتم النقاش هنا أمام أنظار الجميع؟ الواقع أنني أفضل محادثتك في

الداخل».

تجاوزها ثم أغلق الباب بهدوء وراءه. تورد وجه روث عندما نظر إليها مفكراً.

قالت معترضة: «ولكنني لا أرتدي...»

ـ هذه حيلة عمرها عمر الزمان.. ولكنها لسوء الحظ لا تنجح معي.. فأنا محصن أمام النساء اللواتي يستخدمن أجسادهن كما تفعلين.

ـ مع ذلك تريد مني أن أعمل عندك؟ ظننت أنني آخر من تريد أن يكون بين موظفيك.

ـ من الضروري أحياناً الاستسلام لما يصب في مصلحة المرء. والآن، هل من إزعاج إن سألتك عن قرارك؟

إنه أكثر الرجال عجرفة، إن أي شخص آخر غيره لاقترح عليها أن يلتقيا في صالون الفندق، أو لأمهلها على الأقل فرصة لارتداء ثيابها.. لكن سيزار دوتريكاردوز ليس ممن قد يفعل ذلك، فلا شك في أنه يستمتع في بعث الاضطراب في نفسها.

ـ لا أصدق أنك تريد مني أن أعمل عندك.

ـ هيا الآن.. لا أظنك بحاجة إلى الاطراء لأرضي غرورك. لقد أكد لي رب عملك أنك مصممة أزياء من الطراز الأول.. وهو شخص أثق بحكمه.. تجعلني حاجتي إلى مصمم أتغاضى عن بعض أوجه شخصيتك..

ـ لا شك أنك بحاجة إليّ كثيراً ولولا ذلك لما هددت بسحب العقد منه إن لم أوافق!

ـ المسألة كما قلت مصلحة.. تأخرت في إنهاء أقمشة الموسم القادم.. عانيت من مشاكل الصباغ.. فأنا في الأصل

غير ضليع بالتصميم بل بالكيمياء. والواقع أن ما اقترحته على آنسون أمر بحت تجاري، وأنا مستعد لمساعدته إن ساعدني، لذا ليس غريباً أن أرفض إبرام العقد معه إن لم توافقي على العمل عندي.

أحست روث بالقلق، وكأن هناك ما لم يقله لها، ما هو مخبأ عنها.

ـ وأنت تريد مني أن أعمل عندك بضعة أسابيع؟

ـ شهران على الأكثر.. أخبرني السنيور سارجنت أنه قادر على الاستغناء عنك هذه المدة، والباقي وقف عليك.

أضاف: «أشك في أن يكون السنيور سارجنت على علم بشخصيتك الحقيقية.. اسمعي، إن من الحكمة أن توافقي».

لا شك أنه بحاجة ماسة إلى مصمم..

بدأت تسأل: «أنت..»

قاطعها: «ليس لدي وقت أضيعه للرد على جدال آخر».

اقشعر جسمها من عجرفته.

أضاف: إما أن توافقي وإمّا أن ترفضي، لكن إن رفضت فأنت تعرفين الثمن.

ارتجفت روث، فهذا غير منصف، ثم شدت روبها أكثر حول قدها. هل لديها خيار آخر؟

أخيراً قالت بفظاظة:

ـ أنا موافقة.

انفجر الخيط الرفيع من القلق إلى خوف كامل وهي ترى الانتصار يلمع في عينيه.

ـ حكيمة.. إذن.. إن كنت مستعدة للرحيل صباح الغد

www.elromancia.com

فسأصحبك في التاسعة.. وهذا سيترك لنا وقتاً كافياً...

ـ الرحيل؟

قال ساخراً: «أجل.. ألم اخبرك.. أنوي قضاء الشهرين التاليين وأنا أعمل في «الهاسندا» المزرعة، فلدي مسؤوليات هناك والهدوء في الهاسندا يناسبني لأتم عملي. كما أنني أملك مختبراً هناك أجري فيه التجارب على الألوان».

ـ لن أرافقك!

ـ بل سترافقينني بملء إرادتك. منذ خمس دقائق قلت إنك مستعدة للعمل عندي. ترى أترفضين لأنك عرفت أنك ستحلين عليّ ضيفة في منزلي العائلي بدل الإقامة في فندق بمفردك؟.. فكري ملياً في آنسون.. فكري في مستقبلك، كما أفكر في مستقبل أخي.

ـ لويجي؟ وما شأنه في هذا؟

ـ كل الشأن. وهل ظننت أنني سأسمح لك بالبقاء في إشبيليه لملاحقة أخي المسكين حالما يعود ونشر ما لا يعرفه غير الله من شائعات عن علاقته بك.. شائعات تبلغ مسمعيّ خطيبته؟ إشبيليه مجتمع مغلق متزمت.. لن يقبل والدا كلارا بلويجي زوجاً لابنته إن عرف بعلاقته بك.

ردت ساخرة وهي تراقبه ينظر إليها من فوق أنفه النسري:

ـ ظننت أن رأي كلارا هو المهم، لا رأي والدها.. أضف إلى هذا، ليس لدي النية أصلاً في البقاء في إسبانيا.

ـ هذا ما تقولينه الآن. ولكنك لا تنكرين أنك قدمت إلى أسبانيا أصلاً بغية مقابلة أخي، الذي كتب لك يقول إن علاقتكما انتهت؟ لا لن أصدقك حتى وإن أقسمت لي أنك لن

تحاولي الاتصال به، ثمة طريقة واحدة فقط لإنهاء تدخلك في حياتنا.

ـ وما هي؟ أتظن أن العمل عندك يجعل الناس يظنون أنه من غير المعقول أن يحط أحد أفراد أسرة تريكاردوز من قدره بإقامة علاقة مع موظفة تعمل عنده؟.

جعلت سخريتها اللون الأحمر القاتم يتسلل إلى بشرته السمراء وإلى عينيه اللتين غرقتا في برودة قاتلة.

ـ أبداً.. ولكن يعلمون أن لويجي لن يجرؤ على التورط مع عشيقتي.

ـ ماذا؟ أتعني أنك ستترك الناس يظنون أنني عشيقتك؟

شهقت: آه! هذا تصرف قذر! لن تجرؤ!

تحركت عضلة صغيرة في فكه، قال لها بصوت رقيق:

ـ ظننت أنك تعلمت ألا تتحديني؟

عرفت أنه يجرؤ على أي شيء.. إن وجد ذلك ضرورياً.

يا الله! إن ما يحدث تمثيلية كوميدية! أولاً، يتهمها بأنها عشيقة شقيقه ثم ها هو الآن يقول إن الجميع سيظنونها عشيقته!

ـ أنت تبالغ! لن يصدقك أحد.. فالعمل عندك لا يعني بالضرورة أنني عشيقتك.

ـ بالتأكيد لن يشكوا في ذلك إن عملنا في المصنع.. ولكننا سنعمل في منزلي.. وسأتأكد من أن تكون علاقتنا أكثر من علاقة رب عمل بموظفة.

صاحت بحرارة: «لكن كل هذا غير ضروري!»

ـ ربما لك.. لا لي. إن لاسم تريكاردوز مكانة راقية. لن أسمح لك بتدنيسه بسبب جشعك ورغبتك في ابتزاز أخي

للزواج بك.

أثارت كلماته الأخيرة التي لا تغتفر سخطها مجدداً.. كيف يفرض نفسه حكماً عليها؟

قالت ببرود: «حسناً. إن توقعت أن توقفني عند حدي بجري إلى الهاسندا، استعدّ إذن لخيبة أمل كبرى، لأنني غير قادمة وبناء عليه لن يكون أمامك غير استخدام القوة الجسدية لإجباري».

رد بحدة باردة: لقد وافقت على العمل بإرادتك.. وإن لم تذعني..

ـ أعرف.. سيخسر آنسون العقد.

ـ لا شك أنه سيفهم سبب الرفض عندما تشرحين له.

امتلأت نفسها بإحباط قوي.. فهي بالتأكيد لن تستطيع أن تشرح لآنسون سبب رفضها، فقد تعقد الأمر أكثر من اللازم. لا شك أنه سيطلب منها الاعتراف بالحقيقة، وعندئذ ماذا تفعل؟ كيف يمكنها أن تعرض سيسلي لجام غضبه؟ إن أول ما قد يفعله هو الذهاب إلى بريطانيا ليرهب سيسلي.. وماذا عن تشارلز؟ كيف ستكون ردة فعله إن علم أن خطيبته كانت على علاقة غرامية في إسبانيا في الوقت الذي كان من المفروض بها أن تفكر فيه.. لا.. لا يمكنها الاعتراف بالحقيقة، والبديل الوحيد أمامها هو قبول عرض سيزار، وما يرافقه.. ويا له من خيار!

عرفت أن لا خيار أمامها لكن أسخطها أن تضطر للخضوع إلى مثل هذه التكتيكات القرصانية المتوحشة..

قالت ببرود: «سأرافقك. إنما إن حاولت ترك انطباع بأننا

أكثر من زملاء عمل فسأضطر إلى تكذيبك».

ـ من قال إنني بحاجة إلى التلميح؟ فهناك طرق أخرى.. مثل هذه، مثلاً.

قبل أن تستطيع إيقافه، جرّها إليه. سرعان ما تشابكت يداه خلفها، يلصقها به إلصاقاً جعلها تشعر بخفقات قلبه الثابتة، المتناقضة مع دقات قلبها المتسارعة كيف ما كان، أنفاسها عالقة في حلقها، وعيناها في أعلى فتحة قميصه. أوصلت إليها أحاسيسها المرتفعة الوتيرة رائحة عطره النفاذة، ورائحة عنقه السمراء. رفعت عينيها فرأت ظلاً قاتماً على طول فكه يدل على أنه قد يجد ضرورة في حلق ذقنه صبحاً ومساءً، راعتها هذه الفكرة التي طرأت على بالها.

ـ دعني!

صوتها أجش، ملؤه الغضب والألم.. شاهدت ابتسامة ساخرة على شفتيه، واسوداد عينيه الرماديتين الباردتين عندئذ عرفت أن فرصتها في تلبية طلبها كفرصة الفريسة التي انقض عليها الصقر.

ـ أنت ترتجفين.

كان هذا تصريحاً ملؤه الدهشة، رافقته تقطيبة سريعة. تحركت اليد التي لم تكن تضغط على ظهرها، إلى كتفها ليتأمل بشرتها الحريرية الشاحبة.

ـ أنت لا تعرضين بشرتك لأشعة الشمس في العطلات. هل أخبرك لويجي أن اللاتينيين يحبون البشرة البيضاء الجميلة الشاحبة؟ إن بشرتك شفافة كاللؤلؤ.

أحست بوخزات خوف تتعقد داخل معدتها.. يا الله! ماذا

يحاول أن يفعل؟ بل ماذا يفعل بها؟ لقد سبق أن عانقها شخص آخر ولكن لم يسبق أن شعرت بمثل هذا الإحساس.

سمعته يتمتم: «ديوس! يشعر المرء بأن ما من رجل لمس بشرتك.. لكن، كلانا يعرف أن هذا غير صحيح.. أليس كذلك سينوريتا؟»

أرسلت لمسته قشعريرة في كيانها كله. سمحت له أن يضمها وسمحت برأسها بالاسترخاء بعجز على ذراعه.. اسودت عيناه كصخر بركاني وتمتم بصوت متحشرج.

ـ قولي لي هل من المعقول أن يقول من يرانا الآن بأننا غير عاشقين؟.

ارتجفت بمرارة.. تكره نفسها بسبب تجاوبها معه.

قال ساخراً: «ربما تحتاجين إلى المزيد من الإقناع».

وهذا ما جعل معدتها تتقلص بشدة، أمسك ذقنها ليرفع وجهها بحيث لم يعد أمامها سبيل لتجنب ما يوقعه بها من عقاب.. مع ذلك، رغم علمها بأنه يعاقبها وثب شيء ما إلى عروقها بحرارة، ارتعشت روث بعجز، وأخذت تدفعه عنها بذعر فكان أن تركها ببطء ثم راح يتأمل وجنتيها المنوردتين، وعينيها الغاضبتين، بسخرية ملؤها التسلية.

ـ ما بالك؟ لا شك أنني لم أسلبك حريات لم تسمحي بها للكثيرين؟

أجابت ببرود، وهي تعرف أنها لن تستطيع العمل عنده الآن، حتى ولو من أجل آنسون، لأنها تعرف أنها لن تجد لحظة راحة عنده:

ـ هذا غير مسموح لك. فأنا لن أعمل عندك لأنني...

ـ أتقولين إنك لن تعملي عندي بسبب هذا؟ هل تحاولين التصرف كعذراء أسيء إليها.. هذا غير ضروري. اسمعي أنا لا أهتم أبداً بما تركه رجال آخرون، أكان لك رجل واحد أم مئة رجل.. أنت آمنة معي كما لو كنت في دير، ولا تظني أنني أرغب فيك ولو قليلاً. ما حدث قبل قليل كان مجرد تحذير.. ستأتين معي.. أعدك بهذا.. كوني مستعدة.. سآتي لأصحبك في التاسعة صباح الغد.

لو كان عندها شيء من الكرامة، لركبت الطائرة عائدة إلى بلادها حالاً. جلست تنظر إلى حقائبها وتتساءل عما إن كانت تقوم بالصواب.. نظرت إلى ساعتها فوجدت أنها الثامنة والنصف.. لقد غادر آنسون الفندق وتوجه إلى المطار وهو مقدّر لها ما تفعله من أجله.. تحدثا طوال المساء، وحاولت في عدة مناسبات أن تقول له إن لا مجال أمامها للعمل عند سيزار دوتريكاردوز.. ولكن أعصابها خذلتها في كل مرة.

أجفلتها طرقة على الباب. ما إن دخل الحمال ليأخذ حقائبها حتى سيطر عليها خوف هستيري ولكنها مع ذلك لحقت به.

في محاولة لتهدئة نفسها قليلاً، طلبت فنجان قهوة، لكن عندما حُمل إليها وجدت أنها لن تتمكن من احتسائه. ولم تتناول الفطور أيضاً.. لماذا.. آه.. لماذا لم تغادر إسبانيا مع آنسون؟ لو شرحت له لفهم أسبابها.. ولكنها لم تتمكن من إحباط أمله.. فهي ستدمر كل ما سعى إليه.. إنها جبانة، كان عليها أن تخبره، ولو أخبرته لما كانت الآن هنا تنتظر بقلب واجف خاصة عندما رأت الجسد المديد يدنو منها.

ـ تعالي!

كانت المرة الأولى التي تراه فيها مرتدياً بذلة رسمية.. كشف القميص الحريري الرقيق، الشعر الأسود على صدره.. أبرزت سترة رائعة من الكتان عرض منكبيه، وأحست روث فجأة بتوتر حقيقي.. ماذا تعرف عن هذا الرجل؟ لا شيء.

قال لها بلطف: «لا تنظري إليّ هكذا وكأن لي رأسين.. أؤكد لك أنك آمنة ما دمت تحسنين التصرف».

سألته متحدية: وإن لم أحسن التصرف، ماذا تفعل؟ تعاقبني كما فعلت بالأمس، بفرض نفسك عليّ؟

حذرها بعذوبة: حذار سنيوريتا راندال.. أنت تتحدينني بتهور يجعلني أتساءل عما إن كنت تجدين «العقاب» مستساغاً.. لديكم قول شهير: «أي ملجأ من العاصفة» ولكنني لن أكون ملجأ لرغباتك مهما حاولت.

نظرت إليه بغضب متفجر، أيجرؤ على التلميح بأنها تريد منه أن يغازلها؟ أن...

قالت بمرارة: «أنت مخطىء كثيراً.. أفضل أن أتحمل أسوأ العواصف على السعي إلى الراحة بين ذراعيك!»

ظنت لبرهة أنها أربكته، فقد بدا بريق دهشة خفيف في عينيه، لكن هذا سرعان ما اختفى. أخرجها من البهو إلى مدخل الفندق الرئيسي.. وبعد ذلك اقتادها إلى سيارة مرسيدس.

نظرت روث إلى السيارة وارتجفت.. فما إن تصبح في داخلها حتى تفقد أي سبيل للتراجع، لا مجال إلى تغيير رأيها.. ترددت ممزقة بين التوق إلى الهرب وبين الإحساس

بأنها مدينة لآنسون بالبقاء.

همس صوته في أذنها:

ـ لا تفعلي هذا.. إلى أين تهربين؟ تعالي.. اصعدي إلى السيارة، ولا تنظري إليّ وكأنني مجرم محكوم عليه.. أؤكد لك أنني غير مؤذ عندما أعامل باحترام.

أمسكت الباب الخلفي، لكن ويا للدهشة، فتح لها الأمامي. فسألت بمرارة وهي تصعد:

ـ ما الأمر؟ أتخاف أن أهرب منك؟

ـ يُفترض أننا عاشقان.. وما دامت الحالة هذه، فلن تجلسي بمفردك في المقعد الخلفي.

ردت ساخرة: «نعم بالتأكيد. مما أعرفه عن عادات الإسبان أن الجلوس في المقعد الخلفي من حق الزوجات فقط!»

انطلقا في رحلتهما بصمت عدة كيلومترات.. كانت خلالها أعصاب روث تثب من فرط التوتر كلما نظر إليها سيزار.. كان سائقاً ماهراً سريعاً في سيره ولكنه في الوقت عينه حذر.. ونظرت إليه مسترقة النظر ولكن وجهها تورد بشدة إذ رأته ينظر إليها قبل أن يقول بفظاظة:

ـ لقد قلت لك لا تخافي مني فأنا لا أرغب فيك أبداً.

أدهشها الغضب في عينيه وخطوط التوتر حول فمه.

قالت: «لست خائفة..»

ـ ألست خائفة؟ إذن لماذا تتمسكين بأطراف مقعدك وكأنك تتوقعين هجوماً وشيكاً على عفافك.. أم تراها طريقة للتأثير فيّ؟ إن كان هذا هدفك فاعلمي أنك لن تنجحي.. فأنا وإن

كنت لا أعرف شيئاً عنك، لا أصدق أن فتاة أوروبية في العشرينات من عمرها بريئة كالعذارى كما تحاولين الإيحاء به.

صاحت به: «ولمَ لا؟ من يسمعك يظن أن جميع الفتيات الإسبانيات عفيفات».

ـ لن أجادلك في هذا.. لكن لو كنت مكانك لما جربت قدرتي على الصبر كثيراً في محاولة التشبه بشخصية نعرف كلانا أنك بعيدة عنها كل البعد.

لم تعرف كم سيطول بهما الوقت قبل الوصول إلى «الهاسيندا» ولكن ما إن تجاوزت الساعة الحادية عشرة، حتى بدأت تدرك أنه لمن الصعب ترك المزرعة ولو أرادت.

قال سيزار: «أمامنا ساعة فقط».

سألته: «كيف يمكنك العمل بعيداً عن المصنع؟»

ـ هناك وسائل أستخدمها كالهاتف مثلاً. الهاسندا هي ملك العائلة منذ أجيال بعيدة. ما زلنا نزرع الكرمة.

بدأت روث تلاحظ العنب على الدوالي ولكن كبرياءها منعها من طرح الأسئلة.. هذا عدا شعورها بالغثيان إذ لم تتناول فطورها.

كانت الساعة تمام الثانية عشرة عندما انعطف بالسيارة تاركاً الطريق الرئيسية.

كانت تتوقع لسبب ما بيتاً بسيطاً، لكنها حبست أنفاسها رهبة وهي تحدق إلى الأبنية العربية الطراز التي يومض ابيضاضها تحت أشعة الشمس القوية. تكاد تكون قبابها ذهبية من تأثير الشمس عليها.. وكأنما المجمع السكني كله يتقدم منها على بساط الريح السحري في بغداد القديمة.

قال سيزار: «أنشأ المبنى الرئيسي منذ قرون عديدة أحد أسلافي الذي منح هذه الأرض جزءاً من «دوطة» عروسه وعليها بُني أول منزل. ومنذ ذلك الوقت، أضافت إليه الأجيال الأبنية الأخرى ولكنها حاولت المحافظة على النكهة العربية.. بالتأكيد لم يكن من الحكمة في زمن محاكم التفتيش اعتراف الناس بدمهم العربي.. بل كان من الأفضل نكرانه».

نظرت روث إليه فرأت أنه لن ينكر أبداً ميراثه.. الواقع أنه يمكنها بسهولة تصوره يحكم على نفسه بنيران «محاكم التفتيش» على إنكار دمه العربي، وأسلافه العظام.

سارا نحو فناء خارجي، مرصوف وبارد.. فيما كان سيزار يفتح الباب لها، انتبهت إلى أن الأبواب تنفتح وإلى أنَّ أناس يهرعون إليهما، اجتاحتها موجة دوار فتعلقت بقوة في أقرب ما توصلت إليه يداها، وراعها أن تكون ذراع سيزار، فاستغل ضعفها وانحنى يعانقها.

بدا لبرهة أن الزمن توقف، وأخذت المشاعر المجنونة تتسابق إلى قلبها.. ما الذي يصيبها؟ إنها لا تريد التعلق بكتفيه العريضتين كما تفعل الآن، ثم قال بصوت كسول:

ـ آه.. تياستيلا، اسمحي لي أن أقدم لك روث

سرعان ما حدجتها عينان سوداوان تشبهان عيني سيزار ولكنهما خاليتان من العجرفة.

كل ما قالته عمته:

ـ وصلت في الموعد المحدد سيزار.. الصغيرة منفعلة كثيراً لذا طلبت منها أن تنام. هذا هو حالها كلما علمت أنك قادم.

www.elromancia.com

قال سيزار لروث:

ـ ماتيرا كانت العروس الأولى في عائلة تريكاردوز التي تسكن «الهاستدا». جناحها في أحد الأبراج، معزول عن سائر أرجاء المنزل، ولها فناؤها الخاص ودرج يفضي إلى الغرف.

تورد وجه روث عندما فهمت ما قصده. رنت بطرف عينها إلى العمة فرأت تقطيبة على وجهها ونظرة قلق وكأن العمة أدركت أنهما عاشقان لا محالة.. عاشقان؟ أحست بألم حاد يخترق قلبها وتوترت عضلاتها احتجاجاً على الصور التي أثارتها هذه الكلمة.. ولكنها ذكرت نفسها أنها وسيزار ليسا عاشقين وأنه من غير المحتمل أبداً أن يكونا. فهو أولاً لا يشعر بغير الاحتقار تجاهها، وهي تبادله هذا الاحتقار.. تذكرت لبرهة مشاعرها عندما عانقها فأسرعت تطمس الفكرة فهي تتمنى لو تنكر ما شعرت به.. كيف لها أن تستسيغ لمساته؟ لقد عانقها بغية معاقبتها وقد كرهت هذا. نعم كرهته!

* * *

٥ ـ حبال الكذب قصيرة

صحبت عمة سيزار روث لترشدها إلى برج ماتيرا.

اقتربتا من البرج عبر درج حلزوني ضيق، جدرانه مزدانة بأفاريز وبزخارف من الجص على الطراز العربي.

في أعلى الدرج فتحت تياستيلا باباً وأشارت إلى روث أن تسبقها إلى الداخل.. ما إن دخلت حتى حبست أنفاسها. كانت الغرفة كبيرة، فيها باب له قنطرة يقود إلى غرفة أخرى.. وكم أذهلها المنظر الذي طالعها من النوافذ القديمة الطراز.

قالت ستيلا دوتريكاردوز:

ـ إنها أعلى غرفة في المنزل، مع أنها لم تستخدم مؤخراً.. إنها غير عملية لزوجين.. وليس لدينا ابنة تعيش هنا لتسكن فيها كما هي العادة في الماضي.

ـ إنها رائعة!

نظرت روث إلى ما حولها، كانت الجدران مغطاة بحرير ناعم مشمشي اللون يليق بالسجاد الذي يغطي الأرض الخشبية المصقولة.. أعدت هذه الغرفة لتكون غرفة جلوس، أما الغرفة الثانية فأعدت للنوم. تحت إحدى النوافذ الكبيرة مقعد مغطى بالوسائد. لم يصعب عليها تصور فتاة إسبانية جميلة تجلس

www.elromancia.com

هناك، تنتظر عودة زوجها.

فتحت العمة باباً مشتركاً فظهرت لروث غرفة النوم، وهي مزدانة أيضاً بالحرير المشمشي ذاته وهناك سرير ضخم مغطى بغطاء من الحرير.

قالت العمة لروث:

- ثمة حمام أيضاً. سأتركك الآن.. ستأتي مارغو لتساعدك في تفريغ حقائبك، أما الغداء فنتناوله في الساعة الواحدة.

فهمت روث ما تلمح إليه العمة، وما إن انفردت بنفسها حتى فتحت باب الحمام وشهقت لما طالعها. نظرت بدهشة إلى المغطس الرخامي وإلى الجدران المغطاة بالمرايا التي تعكس صورة المرء كيفما استدار. أما لون المرايا فأخضر إذ اكتسبته من النحاس الأخضر المحاطة بها.

اغتسلت بسرعة، ثم ارتدت تنورة من الكتان، لونها أصفر قاتم، وبلوزة مطرزة قصيرة الكمين. إنها بحاجة إلى ثياب أخرى ما دامت مقيمة هنا شهرين. يجب أن تراسل عمتها لتطلب منها إرسال بعض ملابسها.

تأملت ماكياجها، ثم جددت أحمر الشفاه، وبعدما سرحت شعرها، سارت من غرفة الجلوس إلى أعلى الدرج في الخارج. كانت تحس بأنها فراشة ترفرف، وسرى شيء من الترقب في ظهرها، أما سبب الترقب فمضيفها ورب عملها الجديد.

كان واضحاً أن العمة من المدرسة الإسبانية القديمة وهي تعتبر إرادة الذكور في العائلة القانون. حيث روث بلطف ما إن وصلت إلى أسفل الدرج، وشرحت لها أنها بانتظارها لتريها

سائر أرجاء المنزل.

قالت: إنه مكان واسع متشعب.. لذا سأجول بك فيه لئلا تضيعي.

تبعتها روث إلى «الصالة» الرئيسية، التي بدا فيها الأثاث الأثري والسجاد العجمي لا يُقدّر بثمن.. خلف النافذة رأت فناء مماثلاً في التصميم الذي تطل عليه غرفة روث. ولكن هذا أكبر حجماً فيه مشاتل زهور كثيرة، فيما الفناء الذي يطل عليه جناح روث مزيناً ببركة صغيرة فيها نافورة.

قالت ستيلا: «هذا هو الفناء الرئيسي.. وهناك أفنية أخرى، فعائلة تريكاردوز عائلة عربية في الأصل. ففي قرون عدة كانت الأفنية تفصل مختلف أجزاء العائلة عن بعضها بعضاً ليصبح للخلوة الأهمية الكبرى عندما يكون المنزل مشتركاً بين عدة أجيال.. ولكن الصالة والفناء الملحق بها كانت دوماً مكاناً للقاء.. وهناك عدة أفنية صغيرة معزولة، كانت في الماضي سكناً خاصاً لمختلف أفراد العائلة».

- كما كان البرج لماتيرا.. لا شك أن من المثير أن يستطيع المرء معرفة تاريخ عائلته إلى هذا الحد.

فجأة تذكرت ما قاله سيمون ڤيرودا عن العروس الأولى في عائلة تركاردوز.

سألتها: «ألم يكن أول فرد من أفراد أسرة تريكاردوز فارساً من فرسان «بيدرو الظالم؟»».

- آه.. يبدو أنك سمعت القصة. أجل.. في الواقع هذا صحيح. لقد تزوج ابنة فارس مسيحي، ومن أجلها، بنى هذا البرج.

تاقت إلى طرح المزيد من الأسئلة. . لكنها امتنعت إذ لا تريد أن تظهر فضولها كثيراً. ماذا قال سيمون ڤيرودا عن الفتاة؟ إنها ادعت بأن عدو والدها اغتصبها، وإن الفارس فضّل الزواج على تحمل الاتهام المخزي.

فجأة سمعت صوتاً طفولياً في الغرفة.

ـ ها أنتما! تيو سيزار أرسلني أفتش عنكما.

ـ آغي! أرجوك تذكري أن عندنا ضيفة!

التفتت إلى روث، تشرح بالإنكليزية:

ـ إنها تتصرف بطريقة هوجاء أحياناً. . وكثيراً ما تثور عند وصول سيزار. . آغي، تعالي وقابلي الآنسة راندال التي ستعمل عند سيزار.

تقدمت إلى الأمام فتاة صغيرة سوداء الشعر، ذات عينين بنيتين. . كانت ترتدي فستاناً أبيض، مرتباً لا تشوبه شائبة، ولكنه غير عملي. كانت شرائط مماثلة تربط شعرها الطويل، وجوارب بيضاء وحذاء أسود.

نظرت إلى روث بضع دقائق بلهفة ووقار، ثم انفجرت باندفاع:

ـ لن يعمل تيو سيزار طوال الوقت. . أليس كذلك؟

أعلن سيزار الذي أجفلها دخوله الصامت:

ـ ليس طوال الوقت. . لقد تأخرت «بيكونيا» ففكرت أن آتي بحثاً عنك.

ـ إذن، ما دمت لن تعمل طوال الوقت، فلنخرج بعد الظهر في نزهة على ظهر الخيل؟ أرجوك تيو سيزار! لا أحد غيرك يسمح لي بالعدو وأنا على ظهر الخيل.

ـ سنرى. . بعد الغداء. . ولكن قبل هذا يجب أن أعرف من عمتك إن كنت فتاة طيبة في أثناء غيابي.

هرعت إليه الطفلة، تتعلق بذراعه، وهي تؤكد له أنها كانت طيبة.

تذمرت ستيلا وهي ترافق روث ليلحقا بهما إلى خارج الغرفة:

ـ يدللها سيزار كثيراً. . لكن من السهل فهم السبب. إنها صورة طبق الأصل عن أمها. . و. .

صمتت وكأنها أحست أنها قالت أكثر مما يلزم، ثم وجهت اهتمام روث إلى أبواب تقود إلى غرف أخرى.

ـ هذه مكتبة سيزار. ولكنه سيريك إياها بنفسه.

بدت غرفة الطعام ضخمة، الثريات برّاقة، المائدة مصقولة حتى يكاد المرء يرى انعكاس صورته فيها. . لقد نسيت كم الحياة رسمية في البيوت الإسبانية الكبيرة.

قال سيزار: «المرطبات أولاً».

صب أكواباً من عصير الفاكهة، قدّم الكأس الأولى لعمته والثانية إلى روث.

ـ إنه من عصير فاكهتنا.

لم تكن روث قد تناولت الطعام منذ الصباح وها بدأت تحس بتأثير الجوع، لذا لم تشأ احتساء العصير على معدة فارغة. ولكنها قبلته لئلا تسبب الإحراج إن رفضت، وشربت القليل منه بسرعة. . أصرَّ سيزار عليها حتى تكمل ما في كوبها.

ـ ربما لا يعجبك.

www.elromancia.com

وكأنها تجرؤ أن تقول إنه لم يعجبها! فارتشفت ما تبقى منه بسرعة.

أشار سيزار إلى المائدة ليجلسوا حولها.. أمسك لها خادم الكرسي، فدنت منها بسرعة.. إذ راح الدوار يسيطر عليها.

قطع صوت سيزار عليها أفكارها:

- روث!

- أنا.. أنا آسفة..

لكنها شهقت لأن الدنيا بدأت تدور فيها. مدت يدها إلى أول ما أحسته صلباً لتدعم نفسها. اشتدت أصابعها على ذراع سيزار.. فسمعته يتمتم لاعناً.. ثم بدأ الضباب ينسحب من أمام عينيها.

- أنا لم أتناول الفطور اليوم و...

قالت العمة: هذا أمر مزعج إن لم تكوني معتادة عليه، خاصة في السفر. سيزار، إنها غلطتك، كان عليك أن تتأكد إن تناولت الطعام أم لم تتناوله.. لكنك سرعان ما ستصبحين أفضل حالاً عزيزتي..

تركت ذراع سيزار وكانت وجنتاها ملتهبتين كجمر مشتعل.. ولكن، لم تفتها نظرة السخرية في عينيه، ثم أحنى رأسه إليها وتمتم:

- أنت تتمسكين بي كما تتمسك الحمامة بالغصن الذي سيحميها.

إلام يلمح؟ إن لها دافعاً آخر من تمسكها به؟ لكن ما هو؟ أضاف:

- إن كنت تعيدين النظر.. وتفضلين أي رجل في فراشك،

بدل اللاشيء فلا تفكري في أنني قد أقوم بهذا الدور لأنني أختار بدقة من أشاركها مثل هذا الامتياز.

مدت آغي رأسها بفضول:

- تيو سيزار، ماذا تقول للآنسة راندال؟ تبدو متوردة الوجه بشكل مضحك.

أسكتت العمة الطفلة بسرعة، إنما ليس قبل أن تتخلص روث منه وتجلس في كرسيها.. ماذا تظن بها العمة؟ أم تراها معتادة على نزوات ابن شقيقها؟ هل تتجاهل ببساطة الدور الحقيقي للنساء اللواتي يصحبهن إلى بيته؟ لقد قال لها إن الجميع سيظنهما عاشقين، وهي مضطرة الآن إلى الاعتراف بأنه على حق.. لكن، كيف للمرء أن يصحح مثل هذا الانطباع الخاطىء؟ كيف تقول للعمة إنهما ليسا عاشقين؟ الأمر مستحيل!

بعد الغداء اقترح سيزار أن يرافقها لتشاهد المختبر.. فتوسلت إليه آغي:

- هل أستطيع مرافقتكما؟ أعد بأن أكون هادئة غير مشاغبة.

تمتم لروث متسائلاً: «إن لم يكن لديك اعتراض».

هزت رأسها نفياً.. في الواقع ستكون مسرورة بوجود الصغيرة، لأن هذرها الدائم يكسر حدة التوتر الذي يمتد بينهما.

كان المختبر خلف المنزل الرئيسي وقد شرح لها أنه كان في الأساس مجموعة اسطبلات، حوّلها إلى كاراج ثم إلى مختبر له.

كان الباب مقفلاً برتاج وقفل. قال لها وهو يفتحه إنها

احتياطات يقوم بها لئلا يدخل أحد إلى المختبر فيطلع على الصباغ والطرق المستخدمة لصبغ الأقمشة.

- في هذه اللحظات أعمل على صباغ جديد، مرتكز كله تقريباً على مواد طبيعية.. لكن، ما زال أمامي بعض المشاكل مع مادة التثبيت.

- أنتم الشركة الوحيدة التي تستخدم الصباغ الطبيعي.. وهذا نادر ولكن ربما هذا هو السبب الذي يجعلكم الأوائل في حقل الأقمشة.

- هذا صحيح.. وطريقة التصنيع والصباغ مسألة في غاية السرية، والواقع أنني الشخص الوحيد في الشركة الذي يمتلك المعادلة الكاملة.. إنها ثمينة جداً لنا.

استطاعت روث فهم السبب.. فدقة وجمال ألوانهم هي أحد الأشياء التي تساعد على نجاح كل أنواع أقمشتهم.

كان المختبر مجهزاً بطريقة دقيقة. تابعت باهتمام وصف سيزار للعمل الذي يقوم به، مع أن اهتمامها الأساسي لم يكن منصباً على صباغ القماش بل على تصميمه.

كان هناك مكتب ملحق بالمختبر، فيه خزانات مليئة بالملفات المعدنية الغطاء. فتح سيزار أحدها، وأخرج بعض الرسومات التفصيلية ونماذج من أقمشة أعطاها إياها.

- هذه هي الألوان التي نأمل أن ننتجها في الموسم القادم.. هذه هي الألوان التي اقترحت في آخر اجتماع استشاري.. ما علينا أن نفعله الآن هو دمجها في القماش. أنا أريد منك العمل عليها، وذكر بعض الاقتراحات لي.

هزت روث رأسها، والإثارة تتوقد في أعماقها. كانت

تعرف أن قسم الألوان الاستشاري يعمل منذ سنتين على اختيار الألوان التي يريد إنتاجها في المواسم المحددة.. والنماذج التي أعطاها إياها سيزار أسالت لعابها ترقباً. كانت ألوان خريف وشتاء، أسود، رمادي، مرقط، وأزرق يميل إلى الأخضر.

- بإمكانك استخدام المكتب هناك أو غرفة الجلوس في البرج..

قالت آغي تذكره بنفاد صبر:

- قلت إننا سنخرج لامتطاء الخيل.. لقد وعدتني!

- أنسيت أن لدينا ضيفة.. أليس من الأدب أن نسأل الآنسة راندال إن كانت راغبة في مرافقتنا؟

كان السؤال موجهاً لآغي، التي سارعت تسأل روث عما إن كانت راغبة في الانضمام إليهما، مُنحت روث ابتسامة عريضة عندما رفضت بلطف.

قالت لسيزار: «سأحمل هذه النماذج معي إلى البرج».

قالت لآغي: «استمتعي بنزهتك».

لم تتوجه مباشرة إلى البرج، بل وجدت طريقها إلى الفناء المسيّج الصغير الذي رأته من غرفة نومها. كانت دالية «الجاكرندا» تزهر بوفرة على الجدران، تمتزج رائحتها برائحة الأزهار الأخرى، وحولها تصدح حمامتان. كان الفناء معزولاً غامضاً، وكأنه يفضل ضوء القمر وهمسات العشاق على أشعة الشمس وهديل الحمام.. هل سارت ماتيرا يوماً هنا مع حبيبها الذي تزوجها رغماً عنه، ربما؟ هل عرفا الحب يوماً؟

ما إن عادت إلى المنزل حتى التقت بالعمة في الردهة

www.elromancia.com

فقالت لها:

ـ آغي وسيزار يقومان بنزهة على ظهر الخيل.. آغي طفلة رائعة.

وافقتها ستيلا الرأي: «فاتنة.. متى أرادت. لكن سيزار يدللها كثيراً.. وهذا طبيعي كما أعتقد.. فهو كل ما لديها».

سألت روث مشفقة:

ـ أبواها ميتان، إذن؟

تصورت أن السنيورا ترددت قبل أن ترد:

ـ أجل.. إنها الفتاة التي يرعاها سيزار.. ما أصعب ما سيكون الأمر عليها لو تزوج سيزار وأنجب أطفالاً.

ـ لكن عندما يتزوج فستفهم زوجته وتتقبل وجود آغي.

ابتسمت السنيورة تركاردوز.

ـ هذا ما آمله.. لكن هذا وقف على الزوجة.. سيزار يجب أن يتزوج ليستمر اسم العائلة. خطب امرأة يوماً، لكن خطيبته ماتت في حادث سيارة فظيع.

توقفت قليلاً ثم أضافت: «حدث ذلك منذ زمن بعيد.. لذا من الأفضل نسيانه الآن».

كان الوقت متأخراً عندما عاد سيزار وآغي إلى الهاسندا.. كانت روث في غرفة جلوسها تعمل عندما جاءت خادمة تخبرها أن من عادة نساء المنزل احتساء الشاي وتناول حلوى اللوز في مثل هذه الساعة من النهار. ثم أضافت أن السنيورا تريكاردوز بانتظارها في الفناء الرئيسي.

لم تدرك كم كانت أطرافها متشنجة، وكانت ما تزال متشنجة قليلاً عندما خرجت إلى أشعة الشمس لتجد أن آغي

وسيزار عادا وهما الآن يجلسان مع السنيورا.

تحرك سيزار فلاحظت روث أن هناك امرأة طويلة جليلة، في مطلع الثلاثينات من العمر، شعرها الأسود الكثيف معقود إلى الخلف، راحت عيناها السوداوان الباردتان تقوّمان روث.

عرفت روث أنها تلك المرأة التي شاهدتها مع سيزار في الفندق في إشبيليه.. وتساءلت عن هويتها.

ـ آه.. روث هذه أنت.. اسمحي لي أن أعرفك إلى الآنسة راندال التي جاءت إلى هنا لتعمل عندي عدة أسابيع.

كان الرد البارد المقتضب:

ـ وهل تدرك أنها محظوظة؟.

ـ روث.. هذه دايا ميديرنا صديقة وجارة لنا.

رمت روث بنظرة باردة أخرى:

ـ مجرد صديقة.. هيا الآن، علاقتنا أقوى من هذا بكثير.. لو كانت المسكينة غرايس على قيد الحياة لكنا أشبه بالأخ والأخت.

كانت أصابعها مسترخية على ساعد سيزار، ولكن النظرة في عينيها أبعد ما تكون عن نظرة الأخت إلى أخيه. نعم هي نظرة حبيبة.. أتراهما حبيبين؟ بالتأكيد لا.. الواضح أن دايا متحدرة من عائلة رفيعة المستوى كعائلة سيزار.. وشقيقتها كما اتضح كانت خطيبته.. ولو أراد زوجة لما احتاج إلى البحث أبعد من دايا.. أم يا ترى هناك نوع من التحريم على مثل هذا الزواج بسبب علاقته بأختها؟ لم تكن روث متأكدة من قوانين الكنيسة الكاثوليكية في مثل هذه الأمور.

عادت إلى ما يحيط بها فجأة عندما صاحت دايا موبخة

www.elromancia.com

بحدة، وأعلام الغضب القرمزية على خديها:

- آغي.. أصابعك.. لا تلمسي فستاني يا طفلة.. ستفسدينه!

تجهم وجه الصغيرة ونظرت بقلق إلى سيزار الذي كان عابساً، ثم إلى العمة التي قالت بلطف:

- آغي اذهبي وابحثي عن مارغو.. حان وقت راحتك.

علقت دايا بحدة بعد ذهاب الصغيرة:

- سيزار إن هذه الطفلة باتت مستحيلة! يجب أن ترسلها إلى دير لتتعلم الطاعة!

رد رداً ساخراً: «كما فعلت غرايس؟»

لم تفهم روث سبب ذلك التعبير في عيني العمة.

كان على روث الانتظار إلى ما بعد العشاء لتعرض على سيزار العمل الذي أتمته نهاراً. وعندما لم ينتقد العمل دهشت خاصة وهي تراه يعرض عليها عملاً قام به بنفسه.

- الواقع أنني لم أكن أرغب في أن أريك أي دلائل.. فمن المهم أن نعمل على موجة التفكير نفسها.. وما قمت به يُظهر لي أنك متعاطفة مع أقمشتنا. غداً سنمضي ساعة أو أكثر في دراسة الخط الذي سنتخذه للموسم الجديد.. هل أعجبك البرج؟

استغربت غياب سخريته والاحتقار في صوته.

ردت روث بحماسة:

- لقد أحببته ولكنني لا أستطيع إلا التساؤل عما إذا كانت ماتيرا سعيدة هناك.. كانت تسكن تلك الغرف بمفردها..

قاطعها: «بدل أن تشارك غرفة زوجها؟ هذا صحيح، لكن

ذلك كان في الأيام الأولى فقط.. لا شك أنك سمعت القصة، ويجب أن تتذكري أنها انهمت زوجها بإغوائها قبل الزواج.. والحقيقة أنه لم يفعل.. تزوجها ليحمي اسمه النظيف.. لكنه أقسم أن يبقى أعزب وألا يلمس امرأة منحت جسمها لرجل آخر.. وكادت الأمور أن تستمر على تلك الحال لولا إيجاد ماتيرا الشجاعة لتعترف له بأنها كذبت على أبيها ليس في سبيل إخفاء علاقتها برجل آخر، بل لأنها وقعت في حب إيتور، وأرادته زوجاً لها. ولأنها كانت تعرف أن مثل هذا الزواج لن يتم أبداً بسبب العداء بينه وبين أبيها، أعدت خطتها، مع أنها كانت تعرف كبرياء إيتور وكبرياء أبيها، وتعرف أنها لو اتهمت إيتور بتلويث شرفها لتزوجها مضطراً. كانت خطوة جريئة وكان عليها مواجهة نتائج تلويث شرفها، والاعتراف بفقدان عفتها، وربما تحمل كراهية الزوج إلى الأبد.

صمت قليلاً ثم أضاف بفظاظة:

- لكن ماتيرا كانت جميلة، وجريئة، فلم يستطع إيتور مقاومة دموع الندم الذي ذرفتها بسبب الخدعة التي لعبتها. هكذا لم تمضِ ليالي كثيرة بمفردها في البرج.

قالت: خدعته للزواج بها وها أنت تتهمني بأنني أحاول خداع لويجي.

نظر إليها بغضب: «الحالتان مختلفتان.. كان دافعها الحب الذي يغفر الذنوب.. أما أنت فدافعك الجشع المادي.. وهذا ما لا يغتفر!»

لماذا لا يتكلمان مرة إلا وينتهي بهما الأمر إلى شجار؟ جمعت روث تصاميمها متعبة.. لكن سيزار أربكها بقوله

فجأة:

- تبدين شاحبة.. أخبرتني عمتي أنك عملت طوال فترة العصر وجزءاً من المساء.

- كان عندك ضيفة.. كما أنني استمتعت بالعمل.

- ستتمرنين في المستقبل جيداً.. أتجيدين امتطاء الخيل؟

هزت رأسها نفياً، فأضاف:

- يا للأسف.. كان بإمكانك الانضمام إلى آغي عندما تخرج معي صباحاً.

جعلها بهذا طفلة أخرى يجب ملاطفتها وتوبيخها.

قالت له: «بإمكاني التنزه سيراً أو سباحة، أضف إلى ذلك أنني كلما أسرعت في إنهاء العمل كلما أسرعت في المغادرة».

لسبب ما تكوّر فمه غضباً.. ولكن مزاجه المتقلب هذا أمر بدأت تعتاد عليه. كان قد نزع سترته، وراح الهواء المنبعث من النافذة المفتوحة يتلاعب بقميصه ويلصقه بجسده، مظهراً بذلك عضلاته المفتولة القوية.. كانت ياقته مفتوحة فأظهر لون القماش الأبيض اسمرار بشرته. رأت في وسط عنقه نبضاً يتحرك فانجذبت عيناها إلى هذا النبض، وسيطر عليها إحساس غريب وهي تراقب تحركه البطيء نحوها.

- روث...

صمت عندما انفتح فجأة باب «الصالة» الذي ولج منه شاب طويل القامة أسود الشعر سرعان ما تسمّر في مكانه عندما رأى روث.

صاح سيزار بدهشة:

- لويجي! ديوس! ماذا تفعل هنا؟

لويجي!.. حدقت روث إليه دهشة. أهذا هو شقيق سيزار؟

الواضح أنه انتفض بسبب تصرف سيزار معه.. إذ نظر مرتبكاً إلى أخيه أولاً، ثم إلى روث، ثم قال بحدة:

- أود رؤيتك.. لم أكن أعلم أنك آت إلى هنا إذ لم تذكر هذا لي عندما تحدثنا هاتفياً.

- ربما لأنني لم أتصور أن إقامتك مع أسرة ريوردان ستكون قصيرة هكذا.. اعتقدت أنها ستدوم شهراً.

أحست روث بالأسى على الشاب الصغير الذي تورد وجهه من الارتباك.

- هذا أحد المواضيع الذي أريد التطرق إليه معك سيزار.. فأنا..

صمت ينظر متردداً إلى روث، ثم التفت إلى أخيه ليقول بتودد:

- أرى أن لديك ضيفة.. ضيفة جميلة فاتنة. ألن تعرفني إليها؟

بدت دهشة سيزار واضحة ثم ما لبثت أن حلت الصدمة محل الدهشة. التفت هو أيضاً ينظر إلى روث، فتقوقعت على نفسها عندما قرأت الرسالة التي قرأتها في عينيه.

قال بلهجة باردة:

- ظننتك تعرف الآنسة راندال جيداً، إذ لم يمض زمن طويل منذ أن توسلت إليّ كي أساعدك على إبعادها عن حياتك.

أحست روث بالشفقة مرة أخرى على الشاب الذي عاد

www.elromancia.com

التورد إلى وجنتيه.

التفتت إلى لويجي تشرح له، متجاهلة سيزار:

ـ أنا ابنة خال سيسلي.. حدث بيننا سوء تفاهم بسيط فظنني شقيقك سيسلي. وعندما عرفت ما كان ينوي أن يقول لها، قررت ألا أخبره بهويتي فهي رغم مساوئها حساسة فعلاً.

لم تكن بحاجة لتضيف المزيد.. فقد بدا لويجي مذعوراً، وأدار عينين مليئتين بالرعب إلى أخيه.

ـ سيزار.. لم تقل إنك ستكلم سيسلي شخصياً! اتفقنا على رسالة..

ـ هذا صحيح.. ولكنني لم أكن أعرف أنها قادمة إلى هنا لعرض قضيتها بنفسها.. أو هذا ما ظننته.. ومن الطبيعي أن يكون أول ما فعلته هو حمايتك.

قالت روث بمرارة: وهذا سوء تقدير منك.. سيسلي لم تخبرني الحقيقة كاملة، إذ خافت أن تأتي إلى انكلترا لتراها، فهي الآن مخطوبة إلى شاب آخر. ومن الطبيعي...

قاطعها سيزار: «تقولين إن ابنة عمتك كذبت عليك».

سارعت للدفاع: «لم تقصد ذلك، أرادت أن تكون متأكدة من عدم حدوث مضاعفات بسبب رسالتها الأخيرة التي كتبتها عندما كانت تشعر بالقلق واليأس.. أرادت مني أن أقول للويجي إنها راضية لأن علاقتهما انتهت».

لم تكن هذه هي الحقيقة كاملة. سألها سيزار وهو ينظر إليها بعينين ضيقتين:

ـ علمت أنني أخطأت، فلماذا لم تبوحي بالحقيقة؟

قالت ببرود: «لأنني لم أرغب في تعريضها للإهانات التي

اضطررت إلى تحملها منك.. وكما أردت أنت أن تحمي شقيقك، أردت أنا أن أحمي ابنة عمتي!»

رد بصوت عذب:

ـ سنتحدث عن هذا فيما بعد.. أما الآن..

قاطعته بفظاظة: «أعتقد أنك ترغب في الانفراد بشقيقك».

ولم تضف شيئاً بل أسرعت بالخروج مسرورة بابتعادها عنهما.

سبب وصول لويجي غير المتوقع صدمة سيئة لها. ولكن عوضاً عن الشعور بالراحة والرضى لأن سيزار يعرف الحقيقة أخيراً، سيطر عليها الخوف من العودة إلى انكلترا فهي لسبب ما لا تريد العودة إلى بلادها.

* * *

www.elromancia.com

٦ ـ من أجل الشرف

ـ آه.. ها أنت.. أرجو أن تسمحي لي بالانضمام إليك!

نظرت روث إلى وجه لويجي المضطرب.. كانت تجلس في الفناء الصغير، تعمل على بعض التصاميم وتستمتع بأشعة الشمس..

قال لويجي: «سيزار في مختبره.. يجب أن أعتذر لك عن.. عن تصرف أخي.. أنا لا أغفر لنفسي لأنني ورطتك في هذه المسألة.. لقد أعطاني لمحة عما جرى بينكما.. مع أنني لا أعرف أبداً لماذا صحبك إلى الهاسندا، ما دام يشعر تجاهك بالاحتقار..»

بدا مرتبكاً غير سعيد، ولكن روث لم توضح له شيئاً.. ربما يظن أن سيزار أخبره الحقيقة، لكنها تعلم عكس هذا..

أردف بقلق: «تحدثت إلى عمتي هذا الصباح ويبدو أنها تظن.. أن.. سيزار أوحى إليها بأنكما عاشقان.. لكن الواضح أن ذلك غير صحيح. سأكلمه بنفسي عن هذا.. حدثتني سيسلي عنك، وأعرف أنك.. لست.. أنك لا..»

ردت بصوت أجش: «أنني لست فتاة عابثة».

ـ سي! هذا صحيح.. على سيزار ألا يُبدي إعجابه بما

تظنه عمتي.. فلا يحق له أن يعرض شرف امرأة شابة إلى الشبهة.

يا الله! يبدو وكأنه إنسان ساذج من العصر الفيكتوري! هو ليس جاداً بالتأكيد؟ وكرر مرة أخرى:

ـ سأكلمه عن هذه المسألة.. هذا غير عادل!

عادل أم غير عادل، لا ترى سيزار يتأثر بسهولة بكلام أخيه.

مضى على وجودها بمفردها أكثر من نصف ساعة عندما رفعت رأسها لأنها سمعت وقع خطوات قادمة نحوها. شاهدت ويا للدهشة دايا تتقدم باتجاهها، كان فم المرأة الأكبر سناً متجهماً وعلى وجنتيها بقعتان حمراوان.

قالت لروث بلا مقدمات:

ـ أنت تضيعين وقتك سدى.. سيزار لا يريدك. فهو لم يحب قطّ غير امرأة واحدة.. شقيقتي.. و..

حاولت روث مقاطعتها والتأكيد لها بأنها غير مهتمة عاطفياً بسيزار.. لكن شيئاً ما في نظرة هذه المرأة رنّ أجراس الإنذار في رأسها.. شعرت بأن تصرفات دايا تقترب من الهستيريا.

تابعت دايا، وكأن روث غير موجودة هناك:

ـ كان مهووساً بها.. ولكن عليه في يوم ما أن يتزوج، لينجب ابناً ذكراً.. ومن أفضل له من شقيقة المرأة التي أحبها؟

ـ لكن هناك..

أرادت القول إن هناك لويجي، ولكن تلك المرأة لم تعطها فرصة للرد بل أضافت بمرارة:

ـ أنت تفكرين في آغي.. لكنها فتاة وسيزار بحاجة إلى

www.elromancia.com

حبي.

إذن آغي هي ابنة سيزار؟ شعرت روث بالغضب.. كيف يجرؤ على البحث في أخلاقياتها فيما هو..

بدأت دايا تضحك بجنون:

ـ ألم تكوني على علم؟ بالتأكيد لن يخبرك! ليس المفروض بأحد أن يعرف. كانت شقيقتي غرايس خطيبته عدة أشهر، والتحضيرات للعرس كانت قائمة عندما مرضت فجأة.. قال لنا الطبيب إن السبب هو استعدادات العرس فكان أن أرسلت غرايس إلى الأرجنتين للإقامة عند أقاربنا ولما عادت وجدناها حاملاً توشك أن تلد طفلاً.. طفل سيزار. أصيب أهلي بالصدمة.. سيزار الذي وثقوا به واعتبروه ابناً لهم.. سلب براءة غرايس قبل الزواج.. فتسارعت تحضيرات الزواج.. كنت يومذاك متزوجة وقد صدمني تصرف سيزار، لكنني كنت أعرف كم أحبها. ثم، وقبل يومين من الاحتفال، سألتني غرايس عما إن كانت تستطيع استعارة سيارتي.. ثم تعرضت لحادث قرب إشبيليه نقلت على أثره إلى المستشفى، حيث تمكنوا من إنقاذ الطفل ولكن حين وصل سيزار إلى المستشفى كانت غرايس قد ماتت.

لم تستطع روث إخفاء صدمتها ونفورها.. مسكينة غرايس! فهي مهما كانت الظروف بريئة وصغيرة.. وهي الآن ميتة، وليس لسيزار غير الذكريات وطفلة.. طفلته! لماذا عرف عنها على أنها الفتاة التي يقوم على وصايتها؟.

أضافت دايا: «تم التكتم على كل شيء.. ولا يعرف من الغرباء بذلك إلا الأصدقاء المقربين من العائلتين..»

التوت شفتاها، وتذكرت روث شدة كراهية دايا للفتاة الصغيرة التي هي على أي حال ابنة شقيقتها..

أردفت: «آغي.. ذكرى دائمة لا تنسي سيزار شقيقتي».

أدركت روث من لهجة المرأة مدى غيرتها.. حتى من طفلة أختها..

ـ كان ذاك العام كارثة على العائلة، أولاً غرايس ثم زوجي ووالداي اللذان قتلا عندما كان ينقلهم زوجي في طائرته، لكن أسوأ ما حدث هو آغي.. كان من الأفضل أن تموت غرايس.. فلو عاشت لنبذت بسبب خطيئتها.

لم تستطع روث أن تصدق أذنيها.. ما كانت تقوله دايا ضغينة كاملة.. فماذا عن سيزار؟ ألا يلام مثلها؟ والمسكينة آغي! إنها لا تعرف أن سيزار والدها.. أحست بغضب شديد منه. كيف يمكنه إنكار ابنته، وحقها بأبوته؟ لقد قالت دايا إنه أحب غرايس، لكن أي نوع من الحب هذا الذي يجعل الإنسان ينكر أبوته؟.

كانت تحاول فهم ما قالته لها دايا بعد الغداء حينما أعلن سيزار أنه يريد التحدث إلى لويجي في مكتبته.. ولأن آغي لم تعرف ماذا تفعل طلبت من روث مجالستها.

قالت لها: سأكون فتاة هادئة مطيعة.. فاليوم تستقبل تياستيلا صديقاتها.. وهي مناسبة مضجرة.

تأثرت روث برغبة الصغيرة في صحبتها. كانت قد تقدمت في العمل على النماذج والتصاميم. وهي الآن لن تستطيع القيام بالمزيد قبل أن تستشير سيزار.. فكان أن اقترحت على آغي أن يتجولا في الهاسندا لتكون الصغيرة الدليل لتريها ما يحيط بها.

كانت الفتاة الصغيرة مرافقة مسلية.. وطالما أحبت روث الأطفال.. أخفت شفقتها عندما علقت آغي على شعورها بالوحدة أحياناً.

قالت تقضي لروث بخوفها:

ـ تريد دايا إبعادي.. ولكن تيو سيزار لن يسمح لها.

كيف لسيزار أن ينكر أبوته لهذه الطفلة؟

كان الوقت متأخراً بعد الظهر عندما عادتا.. وكانت العمة في «الصالة» مع صديقاتها. فجلست آغي تصغي بأدب إلى أسئلتهن، تجيب برزانة، وكأنها طفلة مختلفة عن تلك الطفلة المرحة التي كانت مع روث. عرفت روث أنها كانت موضوع الكثير من الفضول..

أجابت العمة: «روث صديقة مميزة لسيزار».

سألتها إحدى العجائز ببرود رهيب:

ـ لكنني فهمت أنك هنا للعمل.

لم تدهش روث عندما عرفت أن السائلة هي عمة دايا.. التي تابعت السؤال:

ـ ألا تمانع عائلتك؟ في إسبانيا لا يسمح لفتاة شابة من عائلة كريمة أن تقيم في منزل رجل غير متزوج دون أن تكون معها مرافقة.

ردت روث ببرود، تتذكر باضطراب ما قاله لويجي:

ـ أنا هنا لأعمل.

أتظن هذه المرأة أنها عشيقة سيزار؟ وهل يهم إن ظن الجميع هذا؟ ولكنها شعرت بالانزعاج لأن النسوة كن يحدجنها بنظراتهن، وقد يستمر الكلام عنها في غيابها.

بعدما تركت آغي وروث الصالة، صعدت روث إلى البرج فيما رافقت آغي خادمتها للراحة.

كان المنزل يسير بدقة.. مع ذلك لم ترَ أن العمة تبذل جهداً كثيراً.. مع أنها لاحظت أن الموظفين يستشيرونها يومياً بعد الفطور مباشرة. ولأن الاعتناء بالأثاث الأثري الثمين، وكنوز الفن التي تملأ «الهاسندا» مسؤولية عظيمة، أدركت روث أن من المستحيل عدم الإعجاب بنكران المرأة الإسبانية لذاتها عندما يتوجب عليها تخصيص ولائها لبيتها.

أرادت رؤية سيزار بخصوص التصميمات التي عملت عليها، فجمعت أوراقها وتوجهت إلى مكتبته. وهناك سمعت أصواتاً، أحدها كان صوت لويجي.

الواضح أن الوقت الآن غير مناسب للتطفل.. وكانت على وشك الانسحاب عندما ظهر بيدرو، كبير الخدم.. فردت على سؤال لم يطرحه:

ـ أملت أن أتحدث إلى الكونت.. لكن..

ـ سأخبره متى استطعت.. ربما تودين احتساء شاي؟ في الماضي كان ضيوفنا الإنكليز يطلبون الشاي في مثل هذا الوقت.

شكرت بيدرو على دعوته وقالت إن الشاي أمر رائع.

وصلت صينية الشاي في غضون عشرين دقيقة عليها فنجان صيني فاخر وطبق لذيذ فيه كعكة باللوز.. لم تدرك مدى جوعها حتى وقع نظرها عليها. كانت على وشك إنهاء الفنجان الثاني عندما قرع أحدهم الباب بحدة.. أنبأتها الحاسة السادسة، أنه سيزار.

www.elromancia.com

بدا لها مشغول البال، غاضباً، فغاص قلبها..

- والآن.. هلا كنت طيبة لتشرحي لي لماذا لم تخبريني بالحقيقة عن ابنة عمتك؟

كان يستند إلى الباب، ذراعاه معقودتان على صدره، يتلاعب بقماش قميصه عن غير وعي. كانت عيناه رماديتين براقتين، وهو ينتظر الرد.

قالت بجفاء: «سبق أن ذكرت السبب.. أردت حماية سيسلي..»

- حمايتها أم حماية خطوبتها؟ لقد حدثني لويجي عن تشارلز.. الواضح أنها كانت تفكر في الاقتران به عندما التقت بلويجي.

قالت بثبات: لويجي كان حباً عابراً، سيسلي سخيفة ولكنها غير فاسدة.. أؤكد لك أنها غير طامعة بلويجي.

- غير طامعة؟ لماذا هددته إذن بفضح علاقتهما؟ ألتجبره على الزواج؟

- كانت غلطة منها.. لا شك أنك قادر على تقدير موقفها؟ عادت من العطلة وهي تظن أنها مخطوبة للويجي.. ثم تلقت رسالته التي ينهي فيها علاقتهما فذعرت..

تدخل بازدراء: «حاولت تهديده حتى يتزوجها.. فهل هذه هي الفتاة البريئة التي تحاولين الدفاع عنها؟ لا.. لا أتقبل ما تقولين».

لن تخبره بأن سيسلي كذبت عليها، وارتفع ذقنها بتحد:

- لا يهمني أبداً أصدقت أم لم تصدق.. كل ما أريده الآن هو نسيان ما حدث.

لكن هذا غير صحيح، فثمة أوجه عديدة ستلاحقها دائماً، ولعل أكثر ما تخشى هو اقتراب مشاعرها من الوقوع في حب سيزار.. لكن كيف، أو لماذا، لا تعرف أبداً. في الأيام الأخيرة وجدت أنها أبعد ما يكون عن عدم الاكتراث به. ما عليها إلا أن تتذكر الطريقة التي تتسارع فيها نبضاتها كلما دخل إلى غرفة تتواجد فيها! مع ذلك فهو نقيض ما تتمناه في رجل متعجرف، متسلط، قادر على مواجهة كل ما تتطلبه مسؤولياته.

عبس ثم فتح ذراعيه ليتحرك بصمت إلى النافذة:

- القول أسهل من الفعل.. كان لويجي متألماً بسبب ما حدث، والآن هناك عمتي، وزميلاتها اللاتي يصدقن أنك عشيقتي.

بدا وكأنه يتوقع رداً.. رفضت روث الاعتراف بالألم الذي سببه قوله.. وقالت:

- لكننا نعرف عكس هذا، واعلم أنني لا أبالي بآراء نساء لم تقع عليهن عيني.

- نعم أعرف ذلك، ولكن لسوء الحظ أنني مضطر لرؤيتهن مجدداً، وهذا يهمني.. كما يهمني كل ما يمس سمعة عائلتنا.

كادت تقول إنه كان عليه التفكير في هذا سابقاً، قالت:

- أجل.. أرى أن سمعة كسمعتك حمل ثقيل على كاهل رجل متكبر مثلك.

سرعان ما أدركت أنها تمادت كثيراً إذ أمسكت بمعصمها أصابع كالفولاذ..

وسأل بصوت منخفض: «ماذا تعنين بالضبط؟»

ردت بشجاعة: أظنك تعرف.. فهناك آغي، والناس ليسوا

بعميان.

قال متفهماً: «إذن أخبرك أحدهم قصة غرايسي».

التوى فمه بابتسامة ساخرة:

ـ أنت على حق.. ثمة شائعات لا نهاية لها عن الفتاة وعن أبوتها ومن أجلها ومن أجلي عليّ أن أكون حذراً.

ابتسمت بسخرية:

ـ لا أرى ما يدعوك إلى عدم الاعتراف بالحقيقة لها. إنها قسوة ألا تعترف ولكنها في النهاية ستعرف.

ـ أنت مهتمة بها.

ـ لأنني أحببتها، ولأنني أعرف معنى أن يخسر المرء والديه.. لا شيء، ولا شيء أبداً، يعوض هذه الخسارة.. ووجود واحد منهما أفضل بكثير من عدم وجود أي منهما. أنت تحرمها من حقها.

شدها إليه بقسوة، كادت تزهق أنفاسها.

صاح: «كفى! لن أنصت إلى المزيد.. وعليك الصمت!»

ـ وكيف تجبرني على الصمت؟ برمي في السراديب؟

ـ آه! لا.. بل هكذا!

تحرك فجأة بحيث لم تستطع تجنبه. شد شعرها بقسوة حتى ظنت أن جلدة رأسها ستنسلخ من مكانها.. تفرست عيناه في وجهها المعرض لكافة أنواع الخطر، فيما عيناها تنفثان التحدي الذي لا تجرؤ على التفوه به.

قال لها بعذوبة: فات أوان الطاعة الآن، وعليك تحمل العقاب.

آلمتها أصابعه ورأت غضباً متوحشاً يحترق في عينيه لم

يسبق أن رأته منه من قبل.. أحست أنها مسمرة في مكانها، غير قادرة على الإحساس بشيء إذ كانت محاولاتها منصبة لمنعه من أن يذلها ولتقلب ما عليه أن يكون إثارة إلى كراهية.

عندما شعر أنها أفلتت من انتقامه.. خفف من ضغط ذراعيه عليها فجأة، ثم أبعدها عنه قليلاً في الوقت الذي كانت تتوق فيه لعناقه. تلاشى الغضب من عينيه وحلّت محله حرارة هادئة كسولة، كان جسدها يحاول لا إرادياً الذوبان بين يديه، وراحت عيناها تغمضان وجفناها يرتجفان.

تمتم بصوت أجش هامس:

ـ يور ديوس.. بيننا تجاذب كيماوي لا يمكننا إنكاره!

علمت أن عليها الاعتراض والطلب منه أن يتركها، ولكن أصابعه كانت تمنعها، فأطلق ذلك العنان لمشاعر جعلتها تتوق إلى التعلق بكتفيه.

فشلت حتى أنامله المستكشفة في إلقاء الذعر في قلبها والواقع أنها شعرت بتجاوب بدائي. وكأنما أوصلت أفكارها إليه، فسمعته يتأوه، ورأت بدهشة الاحمرارالذي يصبغ بشرته والحرارة التي تلتمع في نظرته..

قال بانفعال:

ـ إن هذه البشرة أروع من جميع الأجساد البرونزية المعروضة على شواطئنا! إن بياض بشرتك الشاحب يدل على طهارة تثير مشاعر الرجل ولكن ذلك ويا للأسف زائف.

شهقت روث التي عرفت أن عليها الشعور بالخجل، ولكن ما شعرت به كان شوقاً مثيراً.. وكأنما قرأ أفكارها فعاد ليتمتم:

ـ ديوس! أحتقر نفسي لهذا.. ما هو الذي فيك الذي يجعلني أنسى ما أنت عليه؟

رفعها بين ذراعيه، عرفت أن عليها عدم السماح له بهذا.. ولكن كان كل عصب في جهازها العصبي يصرخ طلباً له.

كان كل ما يفعله صدى لأفكارها ولحاجتها.. لم يسبق أن شعرت بمثل هذه المشاعر المتدفقة، لكنها لم تحب رجلاً قط كما تحب سيزار.

تحب! عرفت أخيراً أن عليها عدم إخفاء الحقيقة الغادرة المرة. نعم تحبه.

ـ روث؟

كان يراقبها، يدرس وجهها المتورد دليل تأثرها.. مدت يدها إليه. كانت أناملها ترتجف وهي تلمس العظمة ما بين الكتف والعنق.

قال لها بصوت متحشرج: «يا الله! كم تقت إلى الشعور بيدك على بشرتي.. منذ البداية تقريباً.. أليس صحيحاً أن بيننا تفاعلاً كيماوياً؟ رغبة لا يستطيع أي منا إنكارها».

أرادت روث الاعتراف بأن ما تشعر به ليس رغبة بحتة ولكنهما كانا غارقين في مشاعرهما بحيث لم يسمعا الباب ينفتح.. شاهدت عينا روث المصدومتين وجه العمة المضطرب، ومن ورائها وجه دايا المنتصر.

قالت دايا وصوتها يعكس انتصارها:

ـ قلت لك إنك مخطئة.. قلت لكما إنهما عاشقان!

كان ملء صوت العمة التأنيب العميق:

ـ سيزار! أحس بجرح كبير لأنك تستخدم منزلك كـ...

أصمت سيزار المرأتين بسرعة.

ـ كفى. انتظراني في غرفة الجلوس، هناك ما أقوله لكما. انتظر حتى خرجتا، ثم نهض بسرعة مديراً ظهره لروث.

قال باقتضاب: «أعتذر على ما حصل.. لم أتصور أن...»

أن ماذا؟ أن يسمح لرغبته في التغلب على كراهيته لها؟

ـ يجب أن أكلم عمتي.

خرج ثم أقفل الباب وراءه، تاركاً روث عرضة لندم مرير بسبب استسلامها إلى الأحاسيس التي أثارها فيها.. كيف لها أن تواجه العمة أو دايا مرة أخرى؟ أحست بإذلال شديد لأنهما رأتاها بمثل هذا الموقف الحميم..

ـ روث، هلا أعطيتنا من وقتك دقيقة؟

كان الصوت الهادىء يدل على أنها إن امتنعت عن الرد فسيدخل ليخرجها.. ماذا سيقول لها؟ تأملت نفسها في المرآة قبل أن تجمع شجاعتها وتسير متوترة إلى الغرفة الخارجية.

تلقت من العمة نوعاً من نظرة الأسى.. أما من دايا فقد تلقت نظرة مشبعة بالكره. كانت تقول وهي تدخل إلى الغرفة:

ـ أنت لا تعني هذا سيزار.. هذا غباء كامل!

رد بقسوة: «هذا ما أقرره أنا..»

والتفت إلى روث بعينين تحذرانها من مخالفته:

ـ لقد قلت لعمتي ودايا إننا سنتزوج، وكما أشار لويجي من قبل، أنا مسؤول عن تشويه سمعة فتاة شريفة، ولن أسمح لاسم تريكاردوز بالتمرغ في الوحل مرة أخرى.

احتجت دايا وهي تنظر إلى روث:

ـ لكن.. سيزار.. لن تذهب إلى هذا المدى.. إنه غير ضروري.. ما عليك إلا إبعادها عن هنا، وعندئذ لن يقال شيء.

قاطعتها العمة بحزم:

ـ لا.. سيزار على حق. يجب ألا تحاولي ثنيه عن عزمه دايا.. روث، أنا أرحب بك في عائلتنا بكل سرور.

تقدمت إليها تمسك يديها، وتقبلها بلطف على خديها.

ـ تعالي دايا.. حان لنا أن نتركهما.. سيزار هلا قلت لي ما هي الترتيبات التي يجب أن أقوم بها..

قالت دايا بحقد شديد:

ـ إن كان ينوي أن يتزوجها فليكن هذا في أسرع وقت ممكن.. فلا أظنه يرغب في عروس أخرى تلد منه قبل أن تصل إلى الكنيسة.

ـ كفى.

أجفل روث الغضب الشديد في صوته. لكن دايا لم تهتم، بل هزت كتفيها بشكل مهين وقالت لروث:

ـ قد يتزوجك.. لكنك تعرفين السبب.. فهل ستتمكنين من العيش مع هذا السبب؟

فكرت روث وهما تخرجان من الغرفة أنها على حق. وأقفل سيزار الباب. لا لن تتزوجه لكنه اعترف برغبته فيها.. وهذا الشعور سينمو شيئاً فشيئاً. كانت عائلته لأجيال خلت تعتمد الزيجات المدبرة.. وما تشعر به تجاهه من حب كاف لإنجاح زواجهما.

كانت أفكاراً مجنونة بلهاء.. ارتد سيزار إليها فرأت

الغضب المكشوف البارد في عينيه، فقالت:

ـ ليس علينا الزواج. بإمكاني الرحيل..

قال بمرارة: «ليعرف القاصي والداني أن فرداً من أفراد تريكاردوز خان اسم عائلته؟ أبداً! لا أصدق أنك تكرهين الزواج بي إلى هذه الدرجة.. فنحن متكاملان، ولو جسدياً.. لن يضجر أحدنا من الآخر.. أما الباقي..»

ابتسم لها، ثم هز كتفيه.

ـ سيكون لدي عملي.. وأرجو الله أن تنجبي لي أطفالاً.

لماذا شعرت بأن لها وجوداً فارغاً، مختلفاً عما تصورته؟

أضاف بمرارة:

ـ كان عليّ الإصغاء للويجي، وعدم الاستسلام إلى رغبتي في لمس نعومة بشرتك.. سنتزوج في أسرع وقت ممكن.. أتوافقين؟

أرادت أن تقول «لا» ويجب أن تقول «لا» لكنها تفوهت «بنعم» خفيفة، انسلّت من شفتيها أخيراً.

سمعته يقول: «قرار حكيم.. ستكونين أول عروس في عائلة تريكاردوز التي لا تأتي إلى فراشها الزوجي عذراء».

ـ قلت لي مرة إنك لن تتزوج امرأة عرفت رجلاً من قبل.

وتساءلت عما إن كان هذا سيغير رأيه. ولكن فمه التوى سخرية وهو يرد:

ـ الظروف تفرض على المرء أحياناً أن يغيّر مقاييسه. إن لم أتزوجك الآن، فسأتهم بأنني أفسدت حياة امرأتين شابتين.. ولا يمكنني السماح بحدوث هذا من أجل عمتي وأخي.. إن لم يكن من أجل نفسي أيضاً.

ـ إنه ثمن مرتفع تدفعه من أجل كرامة العائلة، أليس كذلك؟

لم تتصور حتى في أكثر خيالاتها جنوناً، نفسها في مثل هذا الموقف.

قال لها باكتئاب: «إن ثمن بعض الأمور مرتفع كثيراً. ولكن عندما نحتفل بولادة أول ولد لنا قد أتمكن من القول لنفسي إن هناك ميزة لزواجنا».

لن تسمح لطفلها أن يتربى وهو يؤمن أن حياته كلها موقوفة للحفاظ على فخر وكرامة اسم تريكاردوز. . ولدها لن يكون حزيناً مستوحداً مثل آغي. . ولدها. .

أدركت مصدومة أنها تفكر في حمل ولد من سيزار. . عرفت لحظتئذ أنها ستتزوجه، مهما حذّرها عقلها.

* * *

٧ ـ العروس العذراء

بعد ثلاثة أيام، تزوجا في إشبيليه. . سأل سيزار روث بأدب التزمه تجاهها منذ قبلت عرضه، إن كان هناك من تود دعوته لحضور مراسم الزواج.

فكرت في عمتها وفي زوجها وفي آنسون، ثم هزت رأسها بأسى. . فدعوتهم ستثير تساؤلات عديدة وشكوك كثيرة تضاف إلى التي تتدافع أصلاً في رأسها، فوجدت أن الأسهل عليها إبلاغهم بعد انتهاء الزواج.

انتهاء! إنها تنظر إلى فكرة الزواج وكأنه زيارة إلى طبيب أسنان. ومن هو الملام؟ منذ أن وافقت على الزواج، والجميع يعتبرونه ضرورة كريهة. . لكن آغي استقبلت الخبر بفرح غامر، وقالت لروث في ذلك الصباح بالذات:

ـ مسرورة لأنك ستتزوجين تيو سيزار. . لو تزوج من دايا لكرهت ذلك، فهي لا تحبني!

أما سائر أفراد العائلة، فكانت وجوههم متجهمة وتعابيرهم حزينة.

سعى لويجي إليها ليقول:

ـ ما كان عليه أن يجعلك هدفاً لظنون دايا أصلاً. . فهو

www.elromancia.com

يعرف أنها تشعر تجاهه بالتملك، وأنها تسعى إلى إزعاج أية امرأة تقترب منه.

نظرت إلى سيزار تفكر في ما يفكر فيه حالياً.. لقد تزوجا هذا الصباح وهي الآن الكونتيسة دوتريكاردوز.. لامست الخاتم الذهبي الجديد في اصبعها، وكأنها بذلك تريد أن تتأكد أن ما يحدث حقيقة لا حلماً.

كان فطور الزفاف معدّاً في منزل العائلة في المدينة، شارك فيه خمسون ضيفاً غريباً، كلهم من العائلة، وكلهم سيغضبون إن لم يتلقوا الدعوة.

قالت لروث عندما اعترضت:

- إنهم يعتبرون سيزار رأس العائلة.. وإن لم يدعهم فسيخلق ذلك مشاكل فيما بعد.. مرّ بحياته مآزق مؤلمة كافية.

صمتت العمة.. وأحست روث أنها تفكر في الفتاة الأخرى التي كان سيتزوجها. الواقع أن ستيلا قامت بما في وسعها للترحيب بروث في العائلة فلم يكن في تعابير وجهها ذلك التلميح للصدمة المؤنبة التي شاهدتها روث في عينيها في تلك اللحظات الرهيبة عندما لحقت بدايا إلى غرفة البرج.

هذا الصباح فقط، وفيما كانت روث ترتدي فستانها لمراسم الزفاف، دخلت إلى غرفتها، تقدم لها عقداً ضيقاً من اللآلىء.

- عليك التحلي به، إذ وضعته كل عروس لتريكاردوز في عنقها.

احتجت يائسة: «ولكنني لا أكاد أكون العروس التي تتمنينها لابن أخيك».

اليوم من بين سائر أيام حياتها، اشتاقت إلى أن تكون عمتها معها.. اشتاقت إلى الفستان الأبيض الذي طالما حلمت به في سرها بدل هذا الزي الحريري الفاخر الذي اشترته على عجل من إشبيلية.. إنه جميل ولكنه لا يناسب عروس.

صدمت العمة روث عندما قالت بهدوء:

- أنت تحبينه.. وهذا أكثر من كاف. فسيزار رغم كل شيء رجل يحتاج إلى حب زوجته. أعرف أنه يبدو قاسياً ومتعجرفاً أحياناً. كان زوجي مثله تقريباً.. إنها صفة من صفات تريكاردوز المميزة، ولكن سيزار عانى الكثير في حياته.. كان فقده والديه ضربة رهيبة له إذ وقع على كاهله مسؤولية الوصي، والمربي للويجي، ثم المسكينة غرايس.. ما أكثر ما مضى من بؤس وألم! لقد أملت منذ زمن بعيد أن أراه متزوجاً. أعرف أنك ستكونين له زوجة طيبة. أعرف ذلك لأنك تحبينه.

لم تستطع روث كبح الكلمات المتألمة:

- لكنه لا يحبني.

- إنه يرغب فيك.. ومن يعلم إلى أين ستقوده هذه الرغبة!

ومن يعلم حقاً؟ نظرت عبر المائدة الطويلة تصغي إلى الأصوات الإسبانية حولها. إنها الآن جزء من العائلة.. جزء هام.

لم يقررا الذهاب في شهر عسل. فقد أعلن سيزار أن هذا غير ضروري. وسيعودان إلى الهاسندا على الأقل بضعة أسابيع، حتى ينهي تصاميمه. ثم بعد ذلك يقسمان أوقاتهما بين منزل إشبيليه والهاسندا.

رنت بطرف عينها إلى لويجي، كان سيزار غاضباً منه لأنه أعلن أنه لن يتزوج كلارا. وكان قد صاح بسيزار وهما يتشاجران:

ـ ألا يكفي أن يتزوج أحدنا بغير حب؟

هرعت روث التي كانت واقفة خارج المكتبة إلى غرفتها وهناك أجهشت بالبكاء.

أي نوع من الزواج ألزمت فيه نفسها؟ زواج فيه يجد زوجها متعته متجاهلاً عقلها؟ أيمكنها أن تتحمل ذلك؟.

بدا أن الفطور لن ينتهي أبداً، وأخذ رأسها يؤلمها، كان جسدها منشنجاً كثيراً وهذا ما جعلها تجفل من سيزار عندما وقف ليمسك مرفقها، وهما يغادران المائدة.

قال من بين أنفاسه:

ـ يا إلهي.. لماذا تنكمشين مني وكأنك عذراء مذعورة؟

تاقت أن تصيح به: «لأن هذا بالضبط ما أنا عليه».. ولكن الكلمات أبت الخروج. لماذا بحق الله جعلته يظن العكس مدة طويلة؟

كان أمامها سفر طويل تستطيع خلاله التفكير في الأمر.. لم يكن لديها وهم عن طبيعة زواجها.. سيكون الزواج خالياً من العذرية، فسيزار يريد الأطفال، وهي تريدهم أيضاً. ولكنها حتى الآن لم تسمح لنفسها بالتفكير إلا في حبها له. أما الآن، فهي مجبرة على الإذعان إلى فكرة سوء ظنه بها

كان هدير مكيف الهواء هو الصوت الوحيد الذي يزعج الصمت في السيارة. كان سيزار يقود المرسيدس بنفسه.. حادت عيناه عن الطريق وتركزتا على وجهها الشاحب.

ـ أنت شاحبة.. ألست على ما يرام؟

ـ صداع.

ـ هذا تذرع تتذرعه امرأة متزوجة، لا عروس تزوجت للتو. أنت زوجتي روث.. ولن أدعك تحتجين بهذا.. هناك غير الصداع يزعجك.. فما هو؟

أهذه هي اللحظة المناسبة للبوح بالحقيقة؟ تنحنحت لتبعد عنها ترددها وكم تمنت لو يوقف السيارة ويأخذها بين ذراعيه.. فعندئذ سيكون من السهل عليها إخطاره بأنه الرجل الأول في حياتها.

ـ توقفي عن التلاعب.. يور ديوس.. يكاد صبري ينفد! لا أستطيع إلا أن أشكر الله لأنني لن أضطر إلى إقناع عذراء. كنت أتوق إليك منذ قاطعتنا عمتي ودايا، وهذا ما أنوي التعويض عنه الليلة.

صدمتها صرامته، فقالت بجفاء:

ـ وهل هذا هو الثمن الذي عليّ أن أدفعه لأن أحمل اسمك الرفيع المقام؟.

ـ ثمن؟ ما هذا الهراء؟ فاقت رغبتك رغبتي..

لكن كان دافع تلك الرغبة حبها له، والآن كيف لها أن تخبره الحقيقة. تمتمت بتوتر وهي تنظر إلى الخلف إلى الطريق المغبرة:

ـ نسبق الآخرين بمسافة.

ـ أجل، هذا صحيح.. أمامنا أربع وعشرون ساعة.. فالليلة هي لنا وحدنا، وهذا ما اقترحته عمتي، فلم أستطع مجادلتها. أشارت أن أفراد العائلة سيستغربون عودتنا الى

الهاسندا.

وجدت نفسها تقول بمرارة:

ـ أنا واثقة أن دايا ستطلعهم على الحقيقة. وستقول إنني أوقعتك في فخ الزواج، كما ظننت أنت يوماً أنني أحاول إيقاع لويجي.

أكد لها سيزار ببرود: «لن تقول دايا شيئاً.. ما لي أراك هستيرية التصرف، لا أفهم السبب أبداً».

ثارت روث في أعماقها.. لن تفهم السبب. لأنك أعمى وعديم الإحساس.. ولولا عماك لعرفت أنني لست...

انعطفت السيارة إلى الطريق الداخلية المفضية إلى المنزل. كان الغروب قد تسلل وهما في الطريق، وكان هواء المساء مشبعاً بعطر الزهور.

كان المنزل فارغاً ومخيفاً تقريباً. أحست بعينيه على ظهرها وهي تتجه إلى البرج.. ولكنها ما لبثت أن تسمرت في مكانها عندما سمعته يهزأ بها.

ـ أنت ذاهبة في الاتجاه الخاطىء. من الآن وصاعداً ستشاركينني جناحي.

جناحه! فراشه! سمحت له روث التي تكاد تختنق من الخوف أن يقتادها إلى درج آخر.

كان هذا جزء من المنزل لم يسبق أن رأته من قبل، فيه غرفة جلوس كبيرة بسيطة الأثاث، تطل على فناء مظلم.. كانت المصابيح ترمي ظلالاً خافتة على الغرفة المزدانة بألوان تتراوح بين البني والعجمي، أما الآن فالأثاث حديث ولكن طابعه رجولي.. ثمة مجموعة إيطالية متكاملة موضوعة على

جدار، وأريكتان مغطاتان بمخمل بني، موضوعتان قبالة بعضهما بعضاً على جانبي سجادة بيضاء فاخرة.

ـ غرفة النوم هناك.

نظرت إليه روث بعدم تصديق. عندما تحدث عن رغبته لم يقصد إرضاء هذه الرغبة الآن؟

نظرت إلى الباب مخدرة الحس.. لا تكاد الساعة تبلغ السابعة، الوقت مبكر جداً.. وثبت مئة فكرة وفكرة إلى عقلها، أملت أن تجد طريقة لتخبره بالحقيقة.. أملت في المساء أن يلين ولو قليلاً...

قالت كاذبة: «أنا جائعة.. أنا...»

ـ وأنا كذلك.. أظنني حذرتك من التلاعب بي.. ماذا تحاولين أن تفعلي بي؟ أن تدفعينني إلى التحرش بك؟ هل تثيرك هذه الفكرة؟

ـ لا! أنا..

أرادت أن تقول له أنا غير مستعدة. ولكن كيف لها قول ذلك؟ أخيراً تمكنت من القول بوقار:

ـ كان يوماً مرهقاً.. و.. وأريد الاستحمام وتغيير ملابسي.

رد بعذوبة: لن أعارض بالتأكيد، الحمام هناك.

أشار إلى باب في غرفة النوم، عندما أدارت عنقها لتراه، أحست بقربه منها، بالرجولة التي تفيض منه وبردة فعلها المرتجفة نحوه.

قال ساخراً: «هلا عذرتني لحظات.. لدي عمل أقوم به». إنه على الأقل يعرض عليها بغيابه فترة راحة قصيرة، كانت

www.elromancia.com

أكثر من شاكرة له عندما رأته يغلق باب غرفة الجلوس خلفه.. ربما أدرك أنها تفضل أن تستعد بعيداً عن ناظريه. كانت غرفة النوم غرفة طابعها رجولي كغرفة الجلوس. عندما أضاءت النور سرعان ما غمر الغرفة نور ناعم.

ماذا عن ثيابها؟ لا يمكنها ارتداء البذلة الحريرية نفسها.. اتجهت ثانية إلى باب غرفة الجلوس وما كادت تدخلها حتى برز سيزار من لا مكان يسأل ساخراً:

ـ أتقصدين مكاناً ما؟

ـ آه! ثيابي.. أنا..

ـ ستجدينها في أحد الخزائن.. لا شك أن الخادمات اهتممن بها نهاراً.. لِمَ أنت متوترة؟ ليست المرة الأولى تواجهين فيها مثل هذا الموقف.

ردت بحدة: إنها المرة الأولى التي أتزوج بها.

سرعان ما تمنت لو لم تكن عدائية إذ رأت عينيه تسودان.

ـ لقد ترك لنا بيدرو بعض العصير البارد. سأذهب لأحضره.. لقد تركه ظناً منه أنه سيهدىء من اضطرابك العذري.

أخيراً خرج.. فتشت روث عن ثيابها، فوجدت ثياباً داخلية نظيفة وثوباً نظيفاً. من حسن الحظ أن بعض الثياب التي طلبتها وصلت مع أن ليس بينها ما يناسب عروس. كان الحمام فخماً، يطغى عليه اللون الأحمر واللون العاجي فيه مغطس كبير. بعدما ألقت نظرة واحدة تمنت لو كان لباب الحمام مفتاح، لكنها سرعان ما وبخت نفسها على مخاوفها السخيفة. إنها تتصرف كبطلة قصة في العصر الفيكتوري، بطلة يكاد

يغمى عليها وهي تواجه مغتصبها.. ذكرت نفسها أنها تحب سيزار. ولكنه لا يحبها، بل لا يعرف أنه الرجل الأول في حياتها.

لسعت المياه الباردة بشرتها الحارة.. كان شخص ما قد وضع أغراضها مع أغراض سيزار، استخدمت صابونها الخاص لتنظف جسدها، فأنعشها عطره ولكنها ذكرت نفسها بأن عليها عدم إطالة المكوث في الحمام.. وكانت على وشك إدارة صنبور المياه لغسل الصابون عندما تمتم صوت عميق بإثارة:

ـ لقد نسيت جزءاً صغيراً!

سيزار! لم تسمعه يدخل إلى الحمام، ارتدت بسرعة، تمد يدها إلى المنشفة..

ـ يا له من احتشام، هه؟

ردت بصوت غريب:

ـ سيزار.. أرجوك!

أحست بحرارة غريبة عميقة وشعرت برأسها خفيفاً بشكل غريب.

قال لها: لا ترجيني «كوريدا».. أنت امرأة مرغوبة.. يعجبني عطرك.

اختنق احتجاجها وهو يرفعها من تحت الدوش، غير مبال بالبلل الذي ينتقل إلى ثيابه. حملها إلى غرفة النوم وهناك وضعها في السرير.. ثم راح يتمتم بسعادة:

ـ جميلة.. ناعمة، وبيضاء بيضاء.

قالت بغضب: أنا امرأة.. لا دمية.

ـ الليلة أنت زوجتي.. في الصباح لن تتذكري سواي أنا

www.elromancia.com

وحدي.

تذكرت روث الدم العربي في عروقه.. تذكرت ما ورثه من ذلك الدم. فذعرت...

ارتجفت، فعبس:

ـ ديوس.. كم أريدك.

بدأ التوتر يلفها، واجتاحها الضعف أما أصابعه فقبضت على خصرها.. سرعان ما نسيت كل خوفها.

سرى في كيانها شوق وإذعان طرد عنها الخوف...

تحرك مبتعداً عنها فجأة فعادت مخاوفها. رأت الألم والغضب في عينيه، غضب كان عليها أن تبعده عنها بإغماض عينيها. تسارعت دموع الضعف إليها.

قال وهو يقف إلى جانب السرير:

ـ عذراء! لماذا لم تخبريني؟

تمتمت: «وكيف كان لي ذلك وأنت ما فتئت تخبرني بأنك مسرور لأنني امرأة ذات تجربة.. على أي حال، لا أرى ما يدعوك للتذمر.. لا يحصل الرجل دائماً على عروس عذراء.. مع أن الأمر بالنسبة لغرايس..»

اشتد ضغط فكيه غضباً، وتوترت كل عضلات وجهه، وعرفت أنها لو لم تكن أنثى لضربها..

ـ يجب أن تكون راضياً.. أليس هذا ما يتوقعه رجال أسرة تريكاردوز.. البراءة والطهارة!

ـ كان عليك أن تخبريني!

لم تكن الدموع بعيدة عن مآقيها، لقد سار كل شيء على نحو خاطىء لقد أملت أن يلين قلبه عندما يكتشف طهارتها

وعفتها.. لكن..

ـ لماذا؟ أتشكل عذريتي أي فارق في المعاملة؟

كان اتهاماً طفولياً، وعواطفها كانت مصدومة أكثر من جسدها.. لكن وجهه تجهم:

ـ لا أريد تضحية في فراشي.

صاحت به: هناك دائماً دايا.. أليس كذلك؟ إنها لا تنكمش منك كما أنكمش أنا.. ولن تتحمل الصدمة.. من.. من.. متطلباتك!

ضحك بلا رحمة:

ـ متطلباتي، كما تدعينها، ليست أكثر من متطلبات أي رجل.. كانت غلطتي أنني أملت أن أشاركك إياها. لكن الواضح أنك تفضلين البقاء مفرطة في الاحتشام.. حسناً فليكن لك ذلك!

* * *

٨ ـ تحرقها نيرانه

فكرت روث، وهي تصغي إلى تياستيلا التي جلست آغي على ركبتيها، أن كل شيء قد تحول إلى كارثة. كن ثلاثتهن يجلسن في الصالة يشربن القهوة ويأكلن الكايك اللذيذ المصنوع باللوز.

كانت تياستيلا تشرح لروث أنهم يتوقعون زيارة من عرّاب سيزار وابنته.

ثم صمتت وعادت تسأل روث بتعلق واهتمام:

ـ كواريدا.. هل أنت على ما يرام؟ تبدين شاحبة.. أمضيت في المنزل فترة طويلة تعملين على تصميمات سيزار اللعينة، وعليك الخروج.

قالت آغي: أجل.. وعدتني بالخروج معي في نزهة.

أكدت لهما أنها بخير، وأجبرت ابتسامة على شفتيها اللتين شعرت بأنهما على وشك التشقق بسبب الجهد المستمر لرسم الابتسامة عليهما. والابتسام هو آخر ما تريده، كيف يعيش شخصان على مقربة حميمة ومع ذلك يظلان منفصلين؟ توقعت منه أن يقترح غرفتي نوم منفصلتين.. فهو لا يريد مشاركتها غرفته، ولكن ويا لخيبة أملها لم يفعل.. بما كبرياء تريكاردوز

الرهيبة لا تسمح له بالاعتراف بأنه لا يرغب في زوجته.. مهما كان السبب، فقد أجبرت على تحمل الإذلال، ليلة بعد ليلة. كان يستلقي على بعد إنشات منها، ولكنه تصرف ببرود وتحفظ تجاهها، وكأن سلسلة من الجبال تفصل بينهما.

بدأ التوتر يظهر عليها.. وظنت أكثر من مرة أن المرأة العجوز تشك في الحقيقة.. أيقظت نفسها عندما كررت آغي أنها وعدتها بالقيام بنزهة.

كانت الصغيرة مرتدية أحد فساتينها القديمة الطراز، وكم تمنت روث لو تراها في سروال قصير وقميص تعرق وتنسخ، وتعيش حياة طبيعية.

أفضت الصغيرة إليها وهما يسيران في الفناء نحو الأبنية الخارجية:

ـ ليت تيو سيزار معنا. متى يعود من إشبيليه؟

ردت روث وهي تحاول عدم الاستسلام للإحساس بالإحباط الذي تشعر به كلما فكرت بسيزار:

ـ الليلة.

ما أشد ما كانت بلهاء عندما ظنت أن حبها له سيكون المفتاح إلى قلبه! إنه لا يريد حبها ولا جسدها.

قالت آغي بصوت جاد:

ـ سأريك مكاني السرّي.. لا أحد يعرفه غيري وغير تيو سيزار.

أمسكت آغي يدها تقودها نحو وحدات الاسطبلات.. وهناك صهل جوادها فتوقفتا لتمسحا أنفه ولتطعماه الجزر.

قالت آغي وهي تفتح باباً تصورته روث جزءاً من

الكاراج.. ولكنه في الواقع كان مخزناً من نوع ما.. ففيه مكبساً قديم الطراز عرفته من صور شاهدتها، وعدة أوعية ضخمة وبعض البراميل المهترئة..

- كانوا يصنعون هنا الزيت منذ زمن بعيد ومكاني السري هو هناك.. تعالي.

أجبرتها على اللحاق بها إلى زاوية مظلمة ولمّا أشارت آغي إلى باب آخر ذعرت روث. فتحت الباب وراحت تمشي على درج شديد الانحدار بشكل غير ثابت وكان الدرج يفضي إلى الأسفل. فيما كانت تنظر إلى الدرجات الضيقة المظلمة ترددت في النزول إليها. طالما كرهت فكرة أن تكون تحت الأرض، ولكن لم يبد على آغي مثل هذا التردد، بل تقدمت إلى الأسفل برشاقة كانت تدل على أنها تعرف كل خطوة تخطوها، واضطرت روث إلى طأطأة رأسها بسرعة لتتجنب السقف المنخفض.

أصبحتا في غرفة مستطيلة، ينيرها مصباح وحيد يتدلى من سلك. كانت الرطوبة تنضح من الجدران. والهواء بارداً عفناً.. آغي، وهي لا تعي أبداً كراهية روث لمخبأها الثمين، ابتسمت لها بسعادة، وقالت:

- لا أحد يأتي إلى هنا الآن، كانوا يخزنون براميل الزيت هنا.

ستتكلم مع سيزار لأنه يسمح لآغي بالتجول بحرية في مكان شديد الخطورة. إن مجرد التفكير في ما قد يصيبها يكاد يصعقها رعباً. فالسقف غير آمن، وهناك تفسخ عميق في بعض أحجاره.

كانتا في طريق العودة إلى المنزل عندما لحق لويجي بهما فجأة.. كان في نزهة على صهوة جواده، إنه شاب جذاب. ابتسمت روث له بحرارة.

صاحت آغي ضاحكة بعدما رفعها وراح يدور بها بين ذراعيه مرات ومرات:

- تيو لويجي.. تيو لويجي.. أنزلني!

- ليس قبل أن تقبليني!

قبلته طائعة وراحت روث تضحك، وقالت ساخرة:

- إذن هذا سر فتنتك، التقبيل بالتهديد..

قال مهدداً بسخرية: «حذار فقد أفعل الشيء ذاته معك».

أعلنت آغي بصوت حاد:

- لا يمكنك تقبيلها لويجي، فهي متزوجة بتيو سيزار!

- خذوا الحكمة من أفواه الأطفال.. أخي رجل محظوظ.

كانوا يضحكون عندما وصلوا الفناء الرئيسي.. آغي متعلقة بذراع لويجي فيما ذراعه الأخرى مستريحة بخفة على خصر روث.

لكن الضحك تلاشى عن وجه روث لدى رؤيتها وجه سيزار المتجهم الغاضب.. كان جالساً على الشرفة مع عمته ودايا، فأحست روث بمظهرها الأشعث، وبخيوط العنكبوت العالقة على ثوبها وشعرها كما انتبهت إلى ذراع لويجي حول خصرها.

سألها: «روث.. هل نسيت أن دايا قادمة لرؤيتك بعد ظهر اليوم؟»

نظرت روث بدهشة إلى وجه المرأة الإسبانية المتبرج

بدقة.. لا تذكر أنها اتفقت معها على شيء بل لا سبب يدعو للاتفاق. إنها لا تحب دايا وتعرف أن الشعور متبادل.. فهي على أي حال تكره الطريقة التي تعامل فيها آغي وهي ابنة شقيقتها.

لكي توفر على نفسها الجدال اعتذرت بخفة، وكانت على وشك الانصراف معتذرة عندما أذهلتها دايا بقولها:

ـ لا بأس في هذا أبداً روث.. أفهمك جيداً.. عندما يكون مع المرأة مرافق جذاب تميل إلى التغاضي عن المواعيد مع صديقاتها.

بدا سيزار غاضباً غضباً شديداً. عضت روث على شفتها.. لن يظن بالتأكيد أنها تعمدت تجاهل موعدها مع دايا؟ ولويجي.. لماذا ينظر إلى شقيقه بطريقة غامضة؟ لماذا لا تشرح له أنه التقاها قرب الإسطبل وعاد معها إلى هنا؟

أحست آغي بالتوتر في الجو، فمدت يدها إلى يد سيزار بتردد قلق.. كانت تمد نفسها على أطراف أصابعها، فجأة فقدت توازنها، فتمسكت بأقرب ما وصل إلى يدها وصدف أن كان ذلك ذراع دايا.. انسكب كوب العصير الذي كانت دايا تمسكه في يدها على فستانها الحريري العاجي اللون.. فصاحت صيحة غضب، والتفتت إلى آغي، تمسكها بكتفيها وتهزها بشراسة.

قالت تتذمر لسيزار:

ـ هذا كثير «كويردو».. الطفلة خرقاء. لقد سبق أن قلت لك إن عليك إرسالها إلى الدير لتتعلم حسن التصرف.. وما هو مناسب في منزل إنكليزي، ليس مناسباً لنا. ربما يجب أن

تشرح هذا لزوجتك. فمن الواضح أنها تشجع آغي على الحرية.. فتاة خرقاء! في طفولتي كنت أجلد بالسياط وأرسل إلى غرفتي إذا ارتكبت مثل هذا التصرف اللاأخلاقي!

أرادت روث أن تتدخل. كان دمها يغلي برودود غاضبة.. كيف لدايا أن ترهب آغي هكذا؟ كانت حادثة ومن سوء الحظ أن الشراب انسكب على الفستان ولكنه ليس الفستان الوحيد في خزانة دايا.

سمعت سيزار يقول:

ـ ربما أنت على حق كويريدا.. آغي، اعتذري من خالتك ثم اذهبي إلى غرفتك..

أضافت دايا تقاطعه بلؤم:

ـ هذه غلطة روث أكثر من غلطة آغي. هل رأيت الطفلة واتساخ ملابسها؟ لا شك أنها كانت منفعلة.

قال ببرود: «يبدو أن لزوجتي تأثيراً معيّناً على بعض الناس.. آغي.. طلبت منك أن تذهبي إلى غرفتك، ولن أكرر قولي».

رأت روث أن عمته تكبح رداً، كانت تعابير وجهها متجهمة ونقمتها واضحة.. فقاطعتهما بحرارة:

ـ كانت حادثة.. والمسكينة آغي لا تلام كما لا يلام أي شخص آخر.. سيزار، أنا..

قالت دايا ساخرة تقاطعها:

ـ كوني حذرة روث.. سيزار لا يحب مناقشة قراراته.. أليس كذلك كويريدو؟

تجاهلتها روث، وقالت بعذوبة:

ـ تعالي آغي.. سأصحبك إلى غرفتك.

كرهت روث نظرة الألم في عيني الطفلة.. لقد شهدت لتوها وقوع مثالها الأعلى عن قاعدته، وهي لا تفهم حتى الآن لماذا كلمها سيزار بقسوة

وجبة العشاء مناسبة رسمية في منزل أسرة تريكاردوز ولكن لم يكن التوتر طاغياً كما هو الليلة.. فكرت روث في هذا، وهي ترفض قطعة الحلوى التي فضلت عليها فنجان قهوة..

قالت له العمة: «سنيور سيغورزا وتريسيلا سيصلان غداً.. هل ستستقبلهما في المطار؟»

ـ لدي تصاميم أتمها.

لم يكد يتكلم أحد منهم خلال الطعام. فكرت روث أنها قد تكون مخطئة ولكن كان حوله إطار من التوتر المسيطر عليه، لم تره فيه من قبل.. فهل هذا بسبب زواجهما؟ أهو مثلها يتمنى لو لم يتم هذا الزواج؟

قال لويجي: «يمكنني أن أذهب، وآخذ روث وآغي معي».

قاطعه سيزار بحدة: «لا أظن هذا.. فستزدحم السيارة بوجود خمسة ركاب.. الواضح أن الوقت قد حان لتتعلم آغي حسن الخلق فلا يجوز أن تتصرف على هواها لذا ستبقى غداً في البيت، عقاباً لها».

ارتفعت أعلام الغضب الحمراء إلى وجنتي روث:

ـ وهل ينطبق هذا عليّ أيضاً؟ وهل سترسلني إلى غرفتي لأنني نسيت موعدي مع دايا؟

اشتد ضغط فم سيزار حتى أصبح خطاً رفيعاً قاسياً..

قال بحدة: «آغي في عمر يخولها التكيف والتبدل.. أما أنت فللأسف لست كذلك. والآن هلا سمحتم لي.. لدي عمل أقوم به».

بعد خروجه عبس لويجي:

ـ هه! لا شك أن قرداً أسوداً يعتلي كتفيه الليلة.. هل تشاجرتما؟

تشاجرنا! كبحت روث ضحكة هستيرية.. لكي يتشاجرا، يجب أن يتكلما.

قالت تياستيلا:

ـ سيزار متعب.. كان يعمل جاهداً.. حذرته من قبل..

قالت روث للعمة: «لم أعرف أن دايا تنوي زيارتي».

قالت ستيلا بلطف: «تميل دايا إلى السيطرة على سيزار.. يدفعها أحياناً هذا إلى تصرفات متهورة. وأنا واثقة أنها لم تقصد أن تسبب خلافاً بينكما».

لم تقل روث شيئاً.. فقد كانت واثقة أن هذا ما كانت تريده دايا بالضبط ولكنها لم تشأ قول ذلك للآخرين.

سألها لويجي بعد نصف ساعة وهما يتمشيان في الفناء:

ـ هل أخبرك سيزار شيئاً عن كلارا؟

ـ لا شيء.

ولم تقل إن من غير المحتمل أن يقول شيئاً.

ـ إنه منزعج مني على ما أخشى.. لكنني لا أستطيع الزواج بفتاة لا أحبها.

وهذا شعور تقدره روث كل التقدير.

قالت: بالتأكيد لا..

كان الفناء مضاء بنور البدر الذي احتضن كل شيء بنور فضي دافيء..

قال لويجي معلقاً:

- نتوقع عاصفة.. نحتاج إلى المطر بشدة. كان ربيعاً جافاً.

أوقفها بسرعة واضعاً يده على كتفها، ليديرها إليه.

- أنت مختلفة عن ابنة عمك.. إنها ممن يأخذ من الآخرين.. أما أنت فتعطين بلا مقابل ولكن حذار أن تهبي أخي الكثير ففيه شيطان يستحوذ عليه لا يمكن تطهيره منه.. وهو هكذا منذ وفاة غرايس.

ماذا يحاول أن يقول لها؟ إن سيزار ما زال على حب غرايس باق؟ حرقت الدموع مآقيها فطأطأت رأسها.

أحست كحالها مؤخراً بكراهية في الصعود إلى غرفتها.. فهي لا تجد سيزار هناك أبداً. إذ يعمل حتى وقت متأخر متجنباً اللحظة الرهيبة التي يضطر فيها إلى الانضمام إليها. لقد أملت أن تشده إليها عفتها ولكن أملها خاب بمرارة. الرغبة المشتركة التي طالما تحدث عنها قبل الزواج، لم تعد موجودة.. لم تكن تعرف ما هو المسؤول عن هذا التغيير فيه. ولكنها كرهت الليالي الطويلة الفارغة، التي تستلقي فيها إلى جانبه مستيقظة وهي تعلم أن ما عليها غير مد يدها إليه لتلمسه، في الوقت نفسه إنه الشيء الوحيد الذي عليها عدم الإقدام عليه. ولكنها ويا للإذلال ما زالت تريد أن تلمسه.. الإحساس موجود وكأنه وجود غريب في داخلها.. لا تستطيع أبداً نسيان آخر كلماته المجحفة القاسية التي قالها ليلة عرسهما. وما زال في داخلها

شوق إليه لم يرتوِ.

فتحت باب غرفة النوم فصدمها الطيف الذي يضيئه نور القمر. كان واقفاً قرب باب الشرفة.

قال بصوت خال من العاطفة:

- إذن.. لقد عدت. ظننتك ستقضين الليل مع أخي.

حدقت إليه للحظات وهي عاجزة عن الفهم.. ثم استوعبت قوله.

- كنت أنا ولويجي نتحادث ليس إلا.

ولكن ضحكته الفظة أصمتتها إذ قال بوحشية:

- مثلما كنتما تتحدثان بعد الظهر على ما أعتقد.

من غير المجدي القول إنها التقت لويجي عندما كانت عائدة مع آغي.. لكن ما إن طرأت الطفلة على بالها حتى تذكرت وجهها الباكي وفمها المرتجف، عندما دخلت عليها لتقرأ عليها قصة.

قالت غاضبة تدافع عن ابنته، ما دامت غير قادرة على الدفاع عن نفسها:

- كنت غير عادل مع آغي بعد ظهر اليوم. كانت حادثة ولا مجال للومها أبداً.. تميل دايا دوماً إلى إحزانها.. إنها تحبك سيزار ولكنك تظلمها. لا أفهم سبب انقلابك عليها هكذا.

- ألا تفهمين؟ ربما السبب أن الحيوان الجريح ينشب مخالبه في أي شيء إن كان يتعذب.. ربما السبب أنني أكاد أجن من الإحباط.. عندما تزوجتك، لم أرد أن يكون زواجنا عذرياً.

- كان عليَّ أن أبوح لك بالحقيقة.. أردت ذلك لكن..

ـ لكنك فضلت أن أكتشف الأمر بأصعب طريقة، ثم اتجهت نحو أخي تطلبين منه العزاء. حسناً.. قد لا تجدين العزاء بين ذراعي يا روث.. ولكنني لست قديساً لأحترق بنيران الجحيم وبين يدي الوسيلة لأطفىء بها ناري.. كنت على استعداد لمنح نفسك لأخي.. والآن ستمنحيني إياها.

ضاع احتجاجها المذعور على صدره، عاصفاً بكل دفاعاتها، مرسلاً موجات من الحرارة تغمر جسدها. سرعان ما نسيت كل شيء إلا اللهيب المجنون في دمها، والحاجة إليه. الحاجة التي تتأجج في أعماقها منذ ليلة العرس، مع أنها لم تعترف بها قط.

جعلتها معرفتها بأنه يريدها، ترتعش بموجات من السرور. امتدت يداها إليه، تنسللان إلى صدره تتحسسان عضلاته المتوترة وأنفاسه المتسارعة. توقفت أصابعها المرتعشة فوق قلبه الخافق تحت راحة يدها، وشعرت فجأة بأن الزمان قد توقف.

سألها: «ترغبين فيّ».

كانت كلماته تقريراً واقعاً لا سؤالاً.. ولكن شيئاً ما، أجبرها على التجاوب.. وجعلته همستها المتوترة: «أجل! كثيراً!» يركز بصره عليها بعينين اشتدتا اسوداداً.

ـ ديوس روث.. أريدك.. ولو عرفت..

لم تشأ أن يقول المزيد، فهي لا تريد أن يفسد ما يجري بينهما بكلمات قد تدفعها إلى مواجهته بالحقيقة.. فهي الآن بين ذراعيه، تكاد تقنع نفسها بأنه يحبها..

ثم، تلاشت الأفكار وسيطرت على جسمها رعشة سعادة،

وانطلقت بحرية ترتفع في سماء لم تحلم في أن تكون فيها أبداً.

عندما استيقظت كانت بمفردها، وكانت آثار رأس سيزار على الوسادة قربها ما تزال بادية. نهضت عن السرير مستغربة الكسل الذي تشعر به.. تماسكت فيما الغرفة تميد بها وطغى عليها غثيان كاد يفقدها الوعي.. تمنت لبرهة لو أن سيزار معها ليأخذها بين ذراعيه، ويعانقها بحنان الرجل للمرأة التي يحبها.. لكنها سرعان ما استبعدت الفكرة.. قد تقود ليلة أمس إلى تحسين علاقتهما فقد تقود رغبته فيها إلى معاملتها بحنان وحب.

نسيت أنه قال إنه ذاهب إلى إشبيليه وكم خاب أملها عندما نزلت إلى الطابق السفلي فوجدته مسافراً. كان لويجي على مائدة الطعام يحاول إبهاج آغي الدامعة العينين.

كانت روث قد بدأت تساعد تياستيلا في اختيار الطعام اليوم وتضع معها خطط العمل مع العمال والمساعدين.. كانت الهاسندا مزرعة كبيرة، فيها تحف أثرية ثمينة وأعمال فنية يجب تنظيم عملية تنظيفها. ورث العديد من المساعدين أعمالهم من أمهاتهم وآبائهم وهم جميعاً مخلصون للعائلة. وجدت روث أنهم يعاملونها باحترام ومحبة وعندما تمتمت أمام ستيلا أنها لن تتمكن أبداً من النجاح، ضحكت المرأة العجوز وقالت:

ـ ستنجحين فلديك موهبة طبيعية في التعامل مع الناس.

ولكن نجاحها لن يشمل زوجها..

كانت آغي تعسة جداً فاضطرت روث إلى تمضية فترة الصباح معها. يكاد عملها في التصميم ينتهي. تلقت رسالة من

عمتها وزوجها، ملؤها الإثارة والتمنيات.. كتبت العمة: «ستتزوج سيسلي بعد ثلاثة أشهر.. وعليك الحضور بالتأكيد. كانت ستطلب منك أن تكوني وصيفة العروس، لكن يجب أن يكون دورك الآن وصيفة الشرف.. سيقيم والدا تشارلز حفل الاستقبال في منزلهم».

وفيما هي تطوي الرسالة تنهدت، هل ستكون سيسلي أسعد حالاً منها.

بذلت جهدها لإسعاد آغي فعلمتها لعبة الورق ومع أنها أحسنت اللعب كانت تنظر باستمرار إلى الباب. كيف له أن يكون قاسياً هكذا عليها؟ إنها طفلته ولو كان يرفض الاعتراف بها.. تفهم كبرياؤه وتسامحها.. ولكن أن يرفض القول لآغي إنه أبوها لأمر يقلقها.

سألتها آغي وذقنها مرتعش:

ـ هل سيرسلني تيو سيزار حقاً إلى الدير؟

حاولت روث تهدئتها: «لن يفعل بالتأكيد».

أجفلتها الصغيرة عندما قالت:

ـ لكن ما إن ترزقي أطفالاً حتى تفقدي رغبتك فيّ.. هذا ما قالته دايا.

ـ بل سنظل نريدك..

تساءلت في سرها كيف لدايا أن تكون بهذا اللؤم والشر؟

أردفت تسأل محاولة تغيير دفة الموضوع:

ـ ماذا سنفعل بعد ظهر اليوم؟

لكن آغي رفضت التجاوب.

عاد لويجي بعد الغداء مباشرة والضيوف القادمين من

أميركا الجنوبية.. تبين لروث أن السنيور سيغورزا عرّاب سيزار وهو رجل سمين دمث عانق روث وستيلا بحماسة. ثم التمعت عيناه وهو يقول لستيلا بحماسة إنها لا تبدو أكبر سناً ولو بيوم واحد.

قالت العمة: إذن، أنت تحتاج إلى نظارات جديدة.. فلقد مضت عشرون سنة منذ رأيتني آخر مرة.

ـ لكنني أذكر ذلك وكأنه حدث بالأمس.. كنت يومذاك عروساً لم يمض على زواجك غير ستة أشهر، وكم حسدت ابن عمي! كما أنا واثق أن من الرجال من يحسد سيزار الآن.. أخبرني لويجي أن سيزار مضطر للعمل ولكنه راجع في الوقت المحدد للعشاء.. يجب ألا تسمحي له بالعمل المرهق.

قاطعه لويجي بمرح: لدى سيزار قرد أسود بين كتفيه هذه الأيام.. وقد عانت المسكينة آغي من وطأة غضبه يوم أمس، والسبب تلك القطة الشريرة دايا ميديرنا.

عبس السنيور سيغورزا:

ـ آه.. دايا! إنها امرأة غادرة.. يجب أن آخذ حذري منها لحماية صغيرتي تريسيلا.

قدم ابنته ليعرفها إلى روث التي لاحظت نظرة لويجي وهو يركز عينيه عليها.. هي صغيرة، شعرها الأسود البراق معقود إلى الوراء عن وجهها، عيناها البنيتان الكبيرتان متوترتان ملؤهما التردد أما عمرها فثماني عشرة سنة تقريباً. لكنها تملك نضوج المرأة اللاتينية وبراءتها.

بناء على اقتراح لويجي سمحت لنفسها بالابتعاد عن الآخرين لاستكشاف الفناء الخارجي..

علقت روث بحرارة بعد ذهاب الشابين:

ـ ابنتك في غاية الجمال.

قال والدها مفتخراً بها:

ـ إنها وردة مخملية قرمزية اللون. ولكن الكثير من الرجال يفضلون جمال الوردة الذهبية التي تنمو في الأجواء الباردة في الشمال.

جاء السنيور سيغورزا إلى إسبانيا للعمل وللمرح في آن. لذا عندما اكتشف أن روث تساعد سيزار في تصميماته الجديدة، بدأ يحدثها بحماسة واهتمام كبيرين عن الصوف وأميركا الجنوبية، ووجدت روث ما يقوله مثيراً.. إنه مرافق ممتع متعلم لديه خبرة بالدنيا. إنه كجميع اللاتينيين خبير في الاطراء والمديح، ولكن سيزار لم يطرها يوماً.. تفاقمت تلك الغصة من التعاسة التي أحست بها حينما استيقظت واكتشفت أنه رحل ورفضت التخلي عنها.

عاد سيزار أخيراً إلى الهاسندا، قبل العشاء. كانت دايا مدعوة للانضمام إلى الاحتفال، أولاً لأنها تعرف عائلة سيغورزا وثانياً لأنها أرملة فالأرملة مسموح لها حضور حفلات عائلية بدون مرافق ذكر.

وصلت وهم يحتسون المرطبات في الصالة. كان فستانها الحريري الأسود الطويل متناسقاً مع جمالها القاتم وقدها الرشيق. في المقابل أحست روث بشحوب لونها، وعدم بروزها في بذلة من الشوفان العاجي وفي سترتها الواسعة، مع أنها شغفت بها عندما جربتها في المحل.

كانت تريسيلا ترتدي كفتاة صغيرة فستاناً أبيض بسيطاً..

ولكنه رغم جماله لم ينصف جمال الفتاة الشابة.

تأخر سيزار بالانضمام إليهم.. ودخل إلى الغرفة قبل دايا بدقائق.. ما إن شاهدته حتى اتجهت إليه، تشبك ذراعها بذراعه بطريقة تملكية.. كانت أطراف أصابعها الحمراء أشبه بقطرات دم على كم سترته السوداء.

سألت روث سيزار قبل أن يتوجها إلى العشاء:

ـ هل دخلت لرؤية آغي؟ أمضت نهارها باكية لأنك غاضب منها.

لم تعتقد أن أحداً سمعها حتى استدارت دايا فجأة وعيناها تخترقان وجه روث ببرود، وصوتها حلو مزيف:

ـ يجب أن أصعد لرؤيتها أنا أيضاً قبل أن أذهب..

التفتت إلى السنيور سيغورزا تقول:

ـ إنها متوترة مؤخراً.. أخشى أنني السبب في إحزانها بالأمس.

لم يرد سيزار على سؤال روث، وخشيت أن تكرر السؤال. لقد خاب أملها، لقد ظنت أن لليلة أمس تأثير على تصرفاته ولكن ذلك الأمل تهشم ما إن دخل الصالة بوجه متجهم وهو يتقدم إليها سائلاً بأدب مزيف كيف كان يومها، بدا أدبه مشبعاً بالتحفظ المتعمد وكأنه يريد أن يحذرها من الاقتراب منه أكثر.. فهل كان حبه لغرايس أكبر من أن يسمح له بحب آخر؟ هل جمّد موتها عاطفته، وجعل من المستحيل عليه أن يشعر بغير الرغبة تجاه أية امرأة أخرى؟

تنهدت روث التي عرفت أن الأمسية أمامها لن تكون سهلة.. فقد لاحظت أن لويجي لم يكن أكثر من مهتم بأدب

www.elromancia.com

بارد بتريسيلا، وأنها تستجيب له بعينين براقتين وابتسامة.. لم يلاحظ سيزار هذا.. ولكن ما إن يلاحظ..

لم يسامح لويجي حتى الآن على رفضه الزواج بكلارا.. مع أنه مخطىء في فرض إرادته على أخيه.

كانت الليلة حارة رطبة. دمدم الرعد على مسافة بعيدة.. وعندما أصبحوا في منتصف الوجبة هاجمت روث موجة دوار وغثيان. ولكنها تمكنت لحسن الحظ من محاربتها.. لم تظن أحداً لاحظ هذا حتى أدركت أن دايا كانت تراقبها بعينين متفرستين ضيقتين.. في محاولة للتخلص من الإحساس بالبرودة الذي تشعر به كلما راقبتها المرأة الأخرى، امتنعت عن تناول المزيد من الطعام.. لا شك أن السبب هو الحر الخانق الذي يهدد بعاصفة. لكن سيزار كان يبدو مسترخياً، وهو يتحدث إلى عزابه.. سمعته بذكر اسمها فأرهفت السمع متسائلة عما يقال.

قال لها السنيور سيغورزا مبتسماً:

ـ كان زوجك يمتدح قدراتك على التصميم.. أخبرني أن تصاميمك مذهلة.

أحست مرة أخرى بعيني دايا، وبنظرتها العدائية.. لكنها حاولت تجاهلها.. يمتدحها سيزار؟ اجتاحت موجة من السعادة قلبها فأشعلت الثلج المحدق به إذ هناك أمل في المستقبل.

* * *

٩ ـ لماذا أنقذتني؟

بحثت روث عن آغي أكثر من نصف ساعة، ولكن أحداً لم يرها منذ الغداء.. نظرت إلى السماء المكفهرة المثقلة بالمطر وسألت:

ـ تياستيلا، هل شاهدت آغي؟

لا يعقل أن تخرج الفتاة. هطل المطر فجأة بسيل جارف ضارباً الأرض الجافة، أصغوا إلى الأخبار على الراديو فعلموا أن طوفان يوشك أن يجتاح المنطقة.

قلق سيزار على مزروعات المزرعة، مع أنه أوضح أن معظم الزرع في مرحلة لا تؤثر فيه هذه العاصفة.

قال لويجي يشرح لها:

ـ إنه يتحمل مسؤولياته بشكل جاد وأظن السبب راجع إلى استلامه المسؤولية من والده صغيراً.

فكرت روث: كان عليه تحمل تلك المسؤولية بمفرده بدون غرايس.

أسرت روث لستيلا عابسة:

ـ إنني قلقة على آغي.. أين هي؟

أيدتها ستيلا القلقة أيضاً:

ـ كانت حزينة مؤخراً.. قلت لسيزار إنه كان قاسياً معها.. ولكن بدا وكأن شياطين عديدة يقاتلها.

ـ سأصعد إلى الأعلى لأتأكد إن كانت بغرفتها.

ـ إن لم تجديها نظمنا فريقاً للبحث عنها.. إذ يتصرف الأولاد بطريقة غريبة عندما يتكدرون.

لم تكن آغي في غرفتها. التقت روث بالفتاة مارغو التي تعتني بها، وبدا على الفتاة القلق والانزعاج.

ـ هل رأيت آغي؟

هزت الفتاة رأسها نفياً، وقالت لروث:

ـ لم أرها منذ الصباح، كانت حزينة تلك الصغيرة ليلة أمس..

عضت شفتها مترددة فحثتها روث:

ـ نعم.. تابعي.. ليلة أمس ماذا؟

ـ حسناً صعدت السنيورة ميديرنا لرؤيتها.. كنت أحمل إليها بعض الحليب لمساعدتها على النوم، فسمعت صوتيهما.. كانت السنيورة ميديرنا غاضبة جداً جداً. سمعتها تصيح وتصرخ لكنني لم أدخل. لما خرجت لم ترني فدخلت وإذا بي أجد آغي تبكي.. قالت لها السنيورة إنها ستنال العقاب لأنها مزعجة وإن الكونت سيرسلها بعيداً، إلى مدرسة فيها المعلمون متشددون وإنه لن يسمح لها بالعودة إلى هنا.

فزعت روث.. كيف لدايا أن تكون عديمة الرحمة هكذا.. لماذا لم يخبرها سيزار بما يفكر فيه. نعم، دايا خالة آغي، ولكن يجب أن يستشيرها هي قبل أن يتخذ أي قرار يتعلق بآغي. فقد أرادت روث أن تقترح إدخالها إلى مدرسة في

إشبيلية ليتسنى لها العيش في المنزل.. كيف له معاملة ابنته بهذه القسوة؟

أضافت مارغو: «حاولت تهدئتها ولكنها لم تستطع النوم إلا بعد ساعات عديدة».

ـ عظيم لأنك أخبرتني.. هل قالت شيئاً هذا الصباح؟

هزت مارغو رأسها: «لا، لم تتفوه بكلمة.. كانت خامدة الهمة وهادئة ولكنها لم تقل شيئاً».

أحست روث باضطراب شديد، وعادت مسرعة إلى الأسفل لتخبر تياستيلا، التي ارتاعت بدورها عندما سمعت قول روث.

ـ أقلت إن دايا أخبرتها بأن سيزار سيرسلها إلى المدرسة؟ لا أصدق أنه قد يتخذ قراراً كهذا بدون أن يخبرنا أولاً.. ما رأيك أكانت تبالغ؟

شعرت روث بأن دايا لن تجرؤ على مثل هذا الكذب المكشوف والكريه بلا مبرر.

استدعتا لويجي وبثتاه مخاوفهما، سارع السنيور سيغورزا الذي كان برفقته إلى الاقتراح بأن يأخذ كل منهم قسماً من المنزل يبحث فيه ثم أضاف بحزم:

ـ يجب إعلام سيزار.

قال لويجي: سأتصل به.. إلا إذا..

نظر إلى روث، فهزت رأسها، لأنها عاجزة عن محادثته فهي قلقة على آغي كثيراً.. فكرت في الطفلة الصغيرة المسكينة واجتاحها الدوار والغثيان.

شاهد السنيور سيغورزا شحوب وجهها وأسرع إليها.

ـ لا أراك بخير؟

أكدت له: «بل أنا بخير. لا تقلق».

شاهدت النظرة التي تبادلها مع ستيلا التي تمتمت لها:

ـ لقد لاحظت في عدة مناسبات أنك على غير ما يرام. أأنت...؟

مضت عدة دقائق قبل أن تفهم روث ما تعني.. أهي حامل؟ ما زال أمامها وقت لتعرف. أضف إلى هذا أنه لم يكن هناك غير مناسبتين..

لكنها ذكرت نفسها بأن مناسبة واحدة أكثر من كافية.. اجتاحها الذعر فهي غير مستعدة حتى الآن لتحمل مسؤولية طفل. فعلاقتها بسيزار واهنة هشة، ملؤها الصعاب، لذا لا يحق لهما أن ينجبا أطفالاً من هذا الزواج غير الآمن.

وجدت فيما بعد أنها تركت لخيالها العنان. أصغت إلى السنيور سيغورزا الذي تحدث بسرعة إلى سيزار.. وقال لهم:

ـ سيزار عائد فوراً.. في هذه الأثناء علينا أن نبذل ما بوسعنا لإيجاد الطفلة.

سرعان ما تولى السنيور سيغورزا زمام القيادة.. إذ خصص لكل منهم قسماً مختلفاً من المنزل يفتش فيه، أما ريسيلا فاختارت أن تساعد لويجي في مهمته.. رافقتهما روث إلى قمة الدرج تفكر بأسى.

كانت روث تبحث في القسم المخصص لها من الهاسندا عندما صدمتها فكرة ما.. هرعت إلى الأسفل، ومنه إلى الفناء، متجاهلة المطر الثقيل قاصدة الاسطبل.. أملت أن تجد هناك غوديو مسؤول الاسطبل ولكن الواضح أنه التجأ إلى مكان

آخر، فالمكان مهجور.. أول ما استرعى انتباه روث وهي تتقدم من المبنى الذي عرفتها إليه آغي، أن السقف ينوء تحت ضغط المياه، وما إن دخلت، حتى أدركت أن الماء يتقطر من السقف.. فالأرض رطبة.. لكنها لم تضيع وقتها بالقلق على الرطوبة الطاغية.. بل أسرعت إلى باب القبو، تفتحه وتصيح بلهفة باسم آغي.. كان النور مضاء. فظنت أنها سمعت رداً واهناً.. فجأة، دوى رعد قاصف.. نظرت إلى الدرجات بتردد.. كانت الرطوبة تجري فوق الجدران وكان النور باهتاً شاحباً.. خشيت أن تنزل ولكن ربما آغي هناك في الأسفل، متألمة خائفة.. ترددت، فقد كان عليها أولاً اللجوء إلى السنيور سيغورزا لتخبره بمخاوفها. كانت على وشك العودة عندما سمعت صوتاً.. أصغت ملياً فسمعت الصوت مجدداً. آغي! إنها هنا في الأسفل!

صاحت: «لا تقلقي آغي! أنا قادمة إليك!»

كادت تصل إلى الأسفل عندما دوى صوت رعد مرعب ثم فكرت أنه ليس رعداً بل ما هو أسوأ بكثير.. الصوت الوحيد الذي يشبهه هو صوت انهيار ثلج رأته على التلفزيون، ولا شك أن ليس هناك ثلوج في الهاسندا.. ثم تذكرت أن السقف المتهاوي منحنٍ تحت ثقل المياه.. ماذا لو السقف انهار! لكنها لم تجرؤ على السماح لنفسها بالتفكير في الأمر. نشب الرعب مخالبه في معدتها. ووضعت يديها فوقها لتحميها فقد أدركت في لحظة وعي أنها ترغب في طفل لسيزار.

جعلتها فكرة الحمل تشعر بإرادة أقوى لحماية آغي.. أسرعت نصف راكضة ونصف متعثرة على الدرج الشديد

الانحدار، تبحث في الأسفل بذعر وعندما رأت الفتاة الصغيرة في آخر طرف منه وجدت أن وجهها مصعوق رعباً.

ـ آه، آغي!

صاحت آغي متألمة: «روث.. لا أستطيع الوقوف.. وقعت وآذيت كاحلي.. ظننت أنني باقية هنا إلى الأبد!»

ـ هس، حبيبتي..! كل شيء على ما يرام.

أسرعت إليها تجثو أمامها على الأرض، وقالت بلطف: «فلأرَ».

مررت أصابعها على الساق الصغيرة وعلى الكاحل.. اعتقدت أن الكاحل ملتو وليس مكسوراً لكنها لن تخاطر بجعلها تضع ثقلها عليه لذا عليها أن تحملها إلى فوق..

قالت تعطيها تعليمات: ضعي ذراعيك حول عنقي، وتمسكي بي جيداً.. قد تتألمين قليلاً ولكن فكري في عودتنا إلى المنزل سريعاً.. لقد أفزعتنا جميعاً.. تيوسيزار عائد من إشبيلية لمساعدتنا في البحث عنك.

احتجت الصغيرة: «لكنك وجدتني».

شهقت عندما حاولت روث رفعها.. يا الله! ماذا لو تأذى رأسها عندما وقعت؟ قد تصاب بارتجاج! أيجب أن تتركها هنا وتخرج لطلب العون؟

قالت آغي باكية: «لا تدعي تيو يرسلني إلى المدرسة.. أرجوك!»

ـ ألهذا جئت إلى هنا، لئلا تذهبي إلى المدرسة؟

هزت آغي رأسها: «أردت أن أفكر..»

أجفلتا معاً عندما سمعتا هديراً مرتفعاً فوقهما.. فقالت

روث بثبات:

ـ إنه الرعد.

نظرت إلى الأعلى، تحدق مرعوبة إلى الشق الذي ظهر في السقف. وأخذ التراب والحجارة الصغيرة بالتساقط منه.. وتأرجح المصباح المعلق بجنون قبل أن يغوص فجأة في الظلام. ما إن ولى النور حتى أصبحت أذنا روث أشد رهافة فقد سمعت أصواتاً لم تسمعها من قبل. صوت قطرات الماء المتسللة من الجدران وهدير مخيف فوقهما، وتساقط الركام المتزايد ببطء في الشقوق الجديدة غير المنظورة في السقف.

لا، لن تترك آغي أبداً.. والواقع أنهما لن يتمكنا من البقاء حيث هما لحظة أخرى.

قالت للصغيرة: «يجب أن نتحرك».

أحست بالراحة عندما أجابتها آغي بلهجة الأمر الواقع.

ـ أجل.. وإلا سقط السقف علينا، أيمكن أن يسقط؟

ـ تمسكي بي جيداً.

أفضل ما تستطيعه هو تلمس طريقها على الجدار.. من المحتمل بهذه الطريقة تجنب السقوط والانهيار.. كانت مهمة شاقة إذ كان عليها أن تشق طريقها عبر تحسس الجدار وكانت تبذل جهدها لئلا تصدم كاحل آغي بشيء ما.. لم يكن لديها فكرة كم من المسافة قطعتا عندما سمعتا صوت التفسخ فوقهما. ثم فجأة تعثرت فوق الدرج الحجري ولكن رأسها كان محنياً فوق آغي لتحميها.

كادت تتنفس الصعداء عندما تحسست الدرجة الأولى تحت قدميها، كانت خائفة من ألا تجده فتدفنا تحت السقف

المنهار.. أخيراً وصلت إلى الأعلى وهناك راحت تتلمس الجدار حتى وصلت يدها إلى مقبض الباب الذي أرادت أن تفتحه فلم ينصع لها. حاولت مجدداً، تدفعه بقوتها مع ذلك رفض التحرك.

تمتمت آغي بقلق: «ثمة ما يسد طريقه.. ماذا نفعل؟»

قالت روث وهي تحاول الظهور بمظهر المرأة الهادئة:

ـ سنجلس هنا وننتظر مجيء أحدهم ليفتحه لنا.

ـ لكن.. لا أحد يعرف أننا هنا.

هذا صحيح، ومخيف.. فماذا عساها تقول؟ سحبت نفساً عميقاً، وردت كاذبة:

ـ بل يعرفون.. قلت للويجي إنني أظنك موجودة هنا.. ولكنني لم أخبر أحداً من قبل لأنني ظننتك لا تريدين إخبار أحد عن مخبأك السري.

ردت آغي: أصبحنا الآن أربعة.. أنا وأنت، تيو سيزار، وتيو لويجي.

أجل.. سيزار يعرف.. لكن هل سيفكر في التفتيش عنهما هنا؟ لا شك أن أحدهم في النهاية سيلاحظ انهيار السقف.. لكن قد لا يدرك أحد أنهما عالقتان في القبو.

راحت صور رهيبة تطالعها في بحر خيالها.. صور عن راهبات حبيسات وعن هياكل عظمية متحجرة. أخذت تعذبها تلك الصور حتى أرادت الصراخ رعباً وضرب الباب حتى ينفتح.. لكن لو فعلت هذا لأخافت الصغيرة.. لن تعرف أبداً ما إذا كانت تحمل طفل سيزار.. وسيخسر عروساً أخرى..

كانت أسنان آغي تصطك، فالفتاة لا ترتدي غير فستان

رقيق.. خلعت روث سترتها الصوفية ودثرتها بها ثم شدتها إليها لتبعث حرارة جسمها الدفء إليها.

مر الوقت ثقيلاً.. لم يكن مع روث ساعة. كان الصوت الوحيد الذي يكسر الصمت، صوتيهما وصوت التفسخ الرهيب وما يتبعه من تساقط حجارة.

بدأت آغي تبكي قائلة:

ـ سنبقى هنا إلى الأبد.. لن نخرج أبداً!

ـ بل سنخرج.. اسمعي، سأخبرك قصة، ما رأيك؟

قامت بما في وسعها لاختراع شخصيات ومواقف لكنها لم تحصل على غير مقدار ضئيل من تركيز آغي.. قالت بإصرار في مرحلة ما:

ـ توقفي! روث أظن أنني سمعت شيئاً.

أصغت روث، ودقات قلبها تسلب منها القدرة على القيام بشيء آخر. سمعت أصواتاً.. ضعيفة ولكنها تختلف عن صوت تداعي السقف.

قالت آغي: «يجب أن نصيح ليعرفوا أننا هنا».

خشيت روث أن يتسبب صياحهما بتداعي ما تبقى من السقف، فقالت:

ـ لا، بل سندق الباب.

دقت عليه، فلم تسمع رداً، راحت ترهف السمع فربما تخيلتا هذه الأصوات.. ربما لا أحد هناك.

قالت: «يجب أن نتابع الطرق».

كان معصمها يؤلمها من حمل آغي ومحاولة طرق الباب في الوقت نفسه، أخيراً سمعت رداً خفيفاً ولكن أكيداً. ولكي

تتأكد، دقت مرة أخرى، دقات شيفرة تعلمتها وهي صغيرة، فرد على طرقاتها بطرقات مماثلة.

انهمرت الدموع من عينيها.. وأحست بصدرها يضيق ألماً..

أصبحت الأصوات خارج الباب أعلى وتيرة، واتخذت شكلاً محدداً.. في الوقت نفسه أخذ المزيد من سقف القبو يتداعى. كانت الأحجار والركام تتساقط بحدة على الدرج.. وكأنما هناك سباق ما بين الموت والحياة.. ارتجفت روث لهذه الفكرة.

وقعت قطعة من حجر السقف على قدمها ولكنها لم تحس بالألم.. كان جسدها بارداً بحيث لم تشعر به.

سألتها آغي بصوت أجش:

ـ كم سيطول بنا الوقت؟ أحس ببرد شديد روث!

قالت تطمئنها: «ليس كثيراً».

سمعتا صوت تشقق فوق رأسيهما، تبعه صوت أنين مرتفع.. لم تستطع في الظلمة رؤية شيء ولكنها أحست بغبار خفيف يتساقط على وجهها.. لا شك أنهم يحفرون في الباب.. بدا لهما ثقب نور تبعه ثقب أكبر.

ـ روث؟

كان صوت سيزار أجش وحاداً:

ـ روث.. أين أنت؟

قالت بصوت متعب:

ـ نحن هنا.. في أعلى الدرج.

ـ اصغي بانتباه إذن. انهار السقف والركام طمر الباب.

سنحاول الحفر من الأعلى.. لكن، مهما حصل لا تتحركي.. نعتقد أن الأرض ستنخسف تحت الدرج وقد يسبب انتقال ثقلكما من مكان إلى آخر بانهيار الدرج.

قالت: «أصيب كاحل آغي. ولكنني أظنه مجرد التواء».

ازدادت الحركة خلف الباب ثم أخذ الثقب الرفيع يتسع، والنور يكبر.. أخيراً شاهدت وجه آغي.. وشاهدت مدى خطورة موقفهما.. حيث كان القبو، كان الآن جبل من الركام.. ارتجفت وهي تفكر بالمصير الذي كاد يكون لو ظلتا في الأسفل.. كانت عدة درجات في أسفل الدرج منهارة.. أخيراً توقف أنين المثقاب، وتدفق النور إلى سجنهما.. فرفعت وجهها والحب يتدفق من عينيها وهي تشاهد سيزار ينظر إليهما.

قالت له: «خذ آغي أولاً».

ناولته الصغيرة.. كان وجهه ملوثاً بالتراب وشعره مشعثاً متسخاً، وفي عينيه كآبة غريبة. ثم سمعت لويجي يصيح من خلفه:

ـ سيزار.. أسرع.. سينهار المكان في لحظات!

أدركت أن سيزار بمفرده داخل المبنى المتداعي. وأدركت كذلك أنها لن تستطيع إخراج نفسها من الشق في الباب بلا مساعدة وأن عليها البقاء حيث هي بمفردها في أثناء نقل سيزار آغي إلى مكان آمن.. بدا لها وكأنه تردد وكأنما أحس بخوفها ولكنها أجبرت ابتسامة على شفتيها، ورفعت آغي إليه.

أطبقت ذراعيه حول الصغيرة. عندما راقبت ظهره المتواري في الظلام، أحست برعب شديد وبوحدة قاتلة. ما إن

اختفى حتى رغبت التمسك بأظافرها بخشب الباب مذعورة.. حاولت مد يدها ولكنها لم تستطع الوصول إلى الحاجز الخشبي فوقها. سمعت من ورائها تشققاً مكتوماً وشهقت رعباً لأن نصف الدرج انهار فجأة تاركاً إياها معلقة بالباب.

ـ روث.. روث.. لا بأس عليك.. لقد أمسكت بك!

التفت ذراعان قويتان عليها، ترفعانها إلى الأعلى، فتعلقت بهما بقوة.

ما إن رفعها من فوق الباب حتى أدركت مدى المخاطرة المرعبة التي قام بها سيزار.. كان المبنى كله مدمراً. وكان هناك هوة فاغرة فاها تحتهما.. سمعته يدمدم وهو ينقلها إلى بر الأمان. نظرت من فوق كتفه فرأت الأرض تنخسف آخذة معها ما تبقى من المبنى.

تمتم لويجي لسيزار: «إنه المطر».

كان السنيور سيغورزا معه يحمل آغي، كان المطر قد بللها.. ولم تدرك روث أن السماء ما زالت تمطر حتى هذه اللحظة. أحست أنها لم تستمتع قط بأي شيء كما تستمتع الآن بالمطر على بشرتها.

أردف لويجي:

ـ حفر المطر الأرض تحت المبنى وسبب ثقله انهياره.

قال السنيور سيغورزا متجهماً وهم يسرعون نحو المنزل:

ـ لو لم يتذكر سيزار «مخبأك السري» لما تمكنا من إيجادكما. إنها لنعمة من الله أن وصل في الوقت المناسب.

رددت روث في نفسها مخدرة الأحاسيس: إنها نعمة من الله.. حقاً.. ارتجفت من البرد الذي بلغ عظامها رغم دفء

ذراعي سيزار.

كانت تياستيلا في المنزل تنتظر، وكان الخوف يحفر آثاراً عميقاً في وجهها حتى شاهدت من يحملهما لويجي وسيزار..

قال لويجي بلهفة:

ـ أصيب كاحل آغي.. طبيب.

ـ سأتصل به حالاً.. إنما علينا أولاً حملهما إلى غرفتيهما ومساعدتهما على نزع ملابسهما المبللة.. تيا ساعدي آغي.. وأنا..

تمتمت آغي متوسلة لروث، فقال سيزار بسرعة:

ـ تياستيلا.. اذهبي مع آغي.. أما أنا فسأساعد روث.

أرادت روث الاحتجاج والقول إنها الآن أضعف من أن تتحمل لمسة يديه على جسدها بدون أن تفضح حبها له، وهو حب لا يريده. لقد شاهدت الرفض في عينيه عندما نظرت إليه من باب القبو والحب في عينيها.

حملها إلى غرفة لم يسبق أن رأتها وهناك قال لها باقتضاب:

ـ ستحتاجين إلى بعض الانفراد، إنها غرفة أمي.. وهي جزء من الجناح الذي شاركته مع أبي.. قلت لك مرة إنني حين أتزوج فعلى زوجتي أن تشاركني فراشي دوماً.. ولكن ثمة أوقات..

وقف قرب الباب: «آسف على الطفل.. لم أقصد أن يحدث هذا».

ثم وضعها فوق السرير.. متجاهلاً البقع السوداء التي تسببها على الحرير الأبيض.

www.elromancia.com

الطفل.. وهل يعني..؟ لكن..

اختفى في الحمام، ثم عاد حاملاً اسفنجة ومنشفة وقال بهدوء:

ـ أخبرتني تياستيلا.. كانت قلقة عليك وأرادت أن أعرف.

مزق ألم رهيب قلبها.. إنه لا يريدها ولا يريد طفلها:

ـ قد تكون مخطئة.

لم يبدُ مقتنعاً:

ـ ربما.. تعالي.. أريد أن أنظف بشرتك.. ثم أتركك بمفردك. ستشعرين بعد ذلك بأنك أفضل حالاً.

لكنها لن تشعر أبداً أنها أفضل حالاً، راح ينظف التراب عنها بالاسفنجة، يعاملها وكأنها طفلة.. كان دفء الغرفة يشعرها بالنعاس، فيهدىء من روعها.

أنهى سيزار مهمته وأمسك بالمنشفة، فنظرت روث إليه.. بدا لها وجهه صارماً.. رأت للمرة الأولى الزهو فيه..

قال باكتئاب: لقد نجوت بأعجوبة.

تساءلت روث إن كان يأمل ألا تنجو.

قالت: «من حسن حظنا أنك كنت تعرف مكان آغي السرّي».

اشتدت شفتاه إطباقاً، وبدا كأنه يحاول قول شيء، لكنه أخذ يجفف جسدها، ثم فتح الأغطية، وبعد ذلك عندما حملها ليضعها تحت الغطاء، شعرت بشوق مجنون يكاد يدفعها إلى أن تمد يدها إليه لتتوسل إليه أن يظلّ معها ليحتويها بين ذراعيه، ليشفي دفئه ألم جسدها.. ولكن ما الفائدة؟ إنه لا

يريدها، ولا يريد طفلهما.. بل هو على الأرجح، يتمنى لو أنه لم يتزوجها.

كانت نائمة عندما وصل الطبيب وكانت ترافقه تياستيلا، لا سيزار.. عاينها بدقة، ثم ابتسم لها قائلاً إنها شابة في غاية الشجاعة وإنها نجت بأعجوبة.

أضاف بهدوء:

ـ من حسن الحظ أن حملك متقدم قليلاً.. وإلا..

إذن، هذا صحيح.. إنها تحمل طفل سيزار.. أحرقت الدموع عينيها، وكم تاقت أن يرغب سيزار في طفلهما بمقدار ما ترغب هي فيه.

اعتقدت فيما بعد أن الطبيب أعطاها ما يساعدها على النوم.. لأنها شعرت فجأة بخفة في رأسها، وبشوق إلى إغماض عينيها.. حينما فتحتهما مجدداً، كان الصباح وكانت الشمس تتراقص على سقف غرفة نومها.

غرفة نومها! أحست كطفلة صغيرة منبوذة بسبب خطيئة لم ترتكبها.. لماذا وضعها سيزار في هذه الغرفة؟ ألأنه لم يعد قادراً على تحمل وجودها في غرفته، في فراشه، أم لأن حملها ذكره بالماضي، بغرايس التي أحبها؟ ولكنه لم يكن مخلصاً حتى لغرايس لأنه أنكر طفلته. إنه تصرف جبان يتصرفه رجل شجاع لم يتردد لحظة في المخاطرة بحياته لينقذها وينقذ آغي.

مر اليوم متثاقلاً.. كانت مضطرة للبقاء في السرير عدة أيام، كما أمرها الطبيب. كان كاحل آغي ملتوياً فقط، لكنها لزمت السرير أيضاً. قالت ستيلا إن لوبجي وتريسيلا يريدان أن يعوداها.

www.elromancia.com

سألت روث بفم جاف: «وسيزار؟».

- ذهب إلى إشبيلية في عمل ضروري.. سيراك حين يعود.. لا تنزعجي يا روث.. فكري في الطفل الذي تحملينه، واجعليه يبعث إليك الأمل.

كانت روث بمفردها عندما انفتح الباب في وقت ما من بعد الظهر، ودخلت دايا.. كانت كالعادة ترتدي ملابس أنيقة فاخرة.

قالت وابتسامة خبيثة تلوح على وجهها:

- آه.. أنت مستيقظة.. هذا رائع.. فلنتحدث قليلاً.

ردت روث بجفاء:

- عم؟

- عن سيزار بالتأكيد.. وعن اعتقادك بأنك قادرة على الاحتفاظ به.. لقد تزوجك فقط بدافع الشفقة ووخز الضمير لأنه ظن أنه أساء إليك. ولكنك تعرفين ذلك جيداً.

بالتأكيد.. لكنها تذكرت أن ستيلا لا تحب أن تسمع هذا من دايا، التي أضافت:

- هل تعتقدين الآن وأنت تحملين طفله أنه سيعطيك مفتاح قلبه.. لا، هذا ما لن يحدث.. فقلبه..

قاطعتها روث المرهقة:

- قلبه ملك شقيقتك.. أجل. أعرف هذا.. لكنني زوجته دايا.. وسألد طفله.

ردت بلؤم وشر: «زوجته وأنتما تنامان في غرفتين منفصلتين.. أجل طفله.. لكن بإمكان الرجال إنجاب الأطفال بسهولة.. لا تأملي أن تحتفظي به من أجل هذا السبب فقط.

ومن الأفضل لك أن ترحلي قبل أن يطلب منك الرحيل.. من الواضح لك أنه لا يريدك.. وأن زواجكما كان غلطة منذ البداية.. سيزار لا يريدك.. وإن كان يريدك، فلماذا نقلك إلى هنا؟»

نظرت إليها باحتقار ثم أضافت:

- إنه رجل حساس.. لا يمكن أن يترك زوجته في غرفة خاصة، إلا إذا أراد أن يقول شيئاً لها.. سأتركك الآن.

ارتدت نحو الباب ثم أضافت:

- لكن فكري ملياً في ما قلته لك.. أنا واثقة أنك سرعان ما تفهمين أنني قلت الحقيقة.

خرجت دايا قبل أن ترد روث.. وتركتها خائبة الأمل متألمة.. لا يريدها سيزار ولو كانت تملك كرامة أو شجاعة لرحلت حالما تمكنت من الرحيل!

* * *

www.elromancia.com

١٠ ـ اسمح لي بالرحيل!

ـ روث.. كيف حالك الآن؟ قالت تياستيلا إنك بخير بحيث يمكنك استقبال الزائرين، ولكن يجب ألا أتعبك.

ابتسمت روث للويجي: «وكيف حال آغي؟ لم أرها حتى الآن».

ـ إنها تسترد عافيتها أسرع منك. قال الطبيب لسيزار لولا حمايتك إياها من البرد بمعطفك، لازدادت حالها سوءاً.. فصدرها ضعيف، وهذا ما ورثته عن أمها.. ولو بردت أكثر من اللازم لتفاقم أمرها.. من ناحية أخرى، طبيبنا الطيب قلق عليك، يقول إنك شاحبة ومتعبة.. تبدين شاحبة فعلاً.

ـ أنا متعبة قليلاً.. فقط.. كيف حال الجميع؟ كيف حال سنيور سيغورزا وتريسيلا؟

ـ بخير.. لكن ستنتهي زيارتهما قريباً. دعاني السنيور سيغورزا لزيارتهم في الأرجنتين.. وهذا وقف على ما إذا كان سيزار يسمح لي بالسفر.

ـ وهل بُحت له بمشاعرك نحو تريسيلا؟

هز رأسه: «لم أره من قبل بهذا المزاج الرافض.. لا أدري ما الذي دهاه».

ولكنها تعرف.. كان يشعر بالتوتر بسبب ارتباطه بزواج لا يريده.. دابا على حق.. من الأفضل لها أن ترحل.

كان لويجي يفضي إليها عن مدى رغبته في السفر إلى الأرجنتين عندما انفتح الباب ودخل سيزار، بدا لها للوهلة الأولى مجهداً ومتعباً.. ثم بدا في الوهلة الثانية غاضباً بمرارة وشراسة.

تمتم لويجي الذي لاحظ غضب شقيقه:

ـ آه! سأعود فيما بعد لأتحدث إليك.

سألها سيزار بغضب بعد رحيله:

ـ ما الذي كان يفعله هنا؟ من المفترض لك أن تستريحي!

ـ جاء ليحدثني.

ـ مجرد حديث؟ أكان عليه أن يجلس على السرير ببساطة ليحدثك؟

لم تستطع روث فهم مزاجه.. بدا عدائياً تجاه لويجي لسبب تجهله:

ـ وماذا كان يقول لك؟

ـ قال لي إن السنيور سيغورزا دعاه لزيارة الأرجنتين.. وهو يود ذلك بشدة. أعتقد أنني قادرة على التوسل إليك من أجله..

قال، وقد تغير وجهه فجأة:

ـ أخبرني الطبيب أنك لا تستعيدين عافيتك بسرعة كما كان يأمل. ويعتقد أن تغيير الجو قد يكون مفيداً لك.. ربما زيارة لعائلتك..

أحست أن أنفاسها تُعصر من رئتيها.. هذا صحيح.. إنه

يريد التخلص منها.

أدارت رأسها لئلا يرى الألم في عينيها، فتمتم بوحشية:

ـ يورديوس.. ألم تفكري في إخبار أحد بالوجهة التي قصدتها؟ ألم يخطر ببالك ألا أحد يعرف أين أنت؟ لولا تفكيري في أثناء رحلتي الطويلة من إشبيليه بالمكان السري لدفنتما هناك تحت الأنقاض دون أن يعرف أحد.

ردت بمرارة: «وهل كنت ستعبأ؟ إنها طفلتك ومع ذلك تتكلم عن إرسالها إلى مدرسة للراهبات، ثم تخبر بذلك دايا التي تعرف جيداً أنها تكره الطفلة، على الرغم من أنها ابنة شقيقتها. هذا ما لن يحدث أبداً لطفلي..! مسكينة آغي.. إنها لا تعرف أنها ابنتك.. مع أن الجميع على علم بذلك. كيف تستطيع إخفاء الحقيقة عنها إلى الأبد؟ ألم تفكر في ألمها وإحباطها عندما تكتشف الحقيقة».

نظر إليها عابساً فأدركت أنها متوردة الوجنتين شعثاء المظهر:

ـ آغي.. طفلتي؟ عم تتكلمين؟ آغي ليست ابنتي!

ـ أعرف أن هذا ما تحاول إخفاءه. ولكن قيل لي عكس هذا.. إنها ابنة غرايس التي حملت بها في فترة خطوبتكما!

ـ ومن أخبرك بذلك؟

ارتجفت روث من نظرة الغضب التي واجهتها:

ـ أنا..

ـ لقد صدقت.. ولكن لا يهم من أخبرك إياها.. أتظنين أنني قد ألحق العار بالفتاة التي كنت أوشك أن أتزوجها؟

كان في صوته رعب جعلها تشعر بالغيرة من غرايس..

قالت متعبة:

ـ أنا لا أتكلم عن العار سيزار.. لقد أحببتها وأحبتك.. لذا لا غرابة أن تكون بينكما علاقة..

ـ ديوس.. تتكلمين وكأنك تقرئين قصة خيالية! في ما تقولينه الكثير من الحقيقة! غرايس أنجبت طفلاً غير شرعي، وهي آغي، لكنها ليست طفلتي.

لاحظ ملامحها المصدومة وابتسم بمرارة:

ـ ألا تصدقينني؟ أؤكد لك أنها الحقيقة.. لا أحد يعرف الحقيقة إلاّ أنا ودايا.. وربما من الأفضل أن أقص عليك كل شيء، لئلا يكون هناك المزيد من هذه الاتهامات الهستيرية حول افتقاري إلى العاطفة نحو «طفلتي».

تنهد ثم أضاف: طالما كانت عائلة غرايس وعائلتي على علاقة وطيدة. برزت فكرة الزواج بيننا عندما كنا طفلين وهذه هي العادة هنا.. كبرنا ونحن نعرف أن مصيرنا الزواج، مع أننا كنا أشبه بأخوين. كان علينا يوم تبلغ غرايس الثامنة عشرة أن نتزوج.. وعندما بلغت السابعة عشرة تمت الخطوبة رسمياً.. يومذاك أفضى لي أبوها أنه قلق عليها بسبب تصرفاتها، كانت ذات مزاج متقلب، تصيبها نوبات بكاء وعواصف رهيبة، كانت تنفجر من لا شيء. فقررنا أن نرسلها إلى أميركا الجنوبية لتمضي وقتاً مع أقاربها.. أحس والدها بأن التغيير سيفيدها. وافترقنا صديقين وهذه هي حالنا منذ الطفولة، كنا متفاهمين.. وكنت حراً في فعل ما أريد في حياتي الخاصة ما دمت كتوماً. وفيما كانت غرايس غائبة وفيما كنا نحضر للزفاف لأنها كانت عائدة قبل أسبوعين من الموعد. عرفت من دايا أن والدها

يخشى إن عادت في وقت مبكر أن تعاودها نوبات الهستيريا.. وكانت دايا متزوجة، ولا تعرف حالة غرايس.

صمت قليلاً، ثم قال: «غابت ثمانية أشهر.. ولكنني لم أكد أعرفها عندما عادت.. كانت ترتدي ثوباً أسود، وكان وجهها مجعداً وشاحباً.. رفضت مقابلتي حينما زرتها في منزلهما.. قالت لي أمها يومذاك إن السبب عائد إلى التوتر الذي يسبق الزفاف. قبل أسبوع من الموعد، تلقيت مخابرة من المستشفى في إشبيليه تفيد أنها تعرضت لحادثة سيارة، وأنها تسأل عني.. وصلت إلى المستشفى وهناك عرفت أنها تحتضر ثم أخبروني أنها حامل في الشهر السابع. ولأن الجميع يعرف بأمر خطوبتنا ظنوا أن الطفل طفلي فاستدعوني لطلب الإذن مني حتى أنقذ حياته وإن كانوا لن يستطيعوا إنقاذ حياة غرايس. اتصلت بوالديها، لكنهما رفضا المجيء إلى المستشفى.. فقد كان عارهما كبيراً.. كيف توقعوا بحق الله ألا يلاحظ أحد حالتها خلال مراسم الزفاف؟.. لا أدري! لكنهم كانوا يعتقدون أن كل شيء سيكون على ما يرام بعد الزواج، لم أعرف ماذا أفعل، ثم استعادت غرايس وعيها مدة قصيرة فأخبرتني خلالها أن عشيقها رجل التقته في الأرجنتين، أحبته كما لم تستطع أن تحبني. كانت تعرف أنها على وشك الموت فتوسلت إليّ حتى أغفر لها، ثم رجتني أن أنقذ الطفل وأعتني به.. عرفت فيما بعد من اتصالات قمت بها في أميركا الجنوبية أن عشيقها متزوج، وهذا ما لم يخبرها به. بقيت معها حتى النهاية وكان أن ماتت بعد ولادة آغي مباشرة.. ولن أنسى أبداً النظرة على وجهها عندما فتحت عينيها ورأت طفلتها..

أقسمت ساعتئذ أن أربي آغي وكأنها طفلتنا.. أعتقد أن من المحتم أن يظن الناس أنها طفلتي».

تمكنت روث من الهمس:

ـ أنا آسفة، ما كان عليّ.. لا شك أنك أحببتها كثيراً.

نظر إليها غير مصدق:

ـ أحببتها؟ كشقيقة أجل إنما ليس كحبيبة.. ولا أنكر أن جزءاً أنانياً في نفسي شعر بالفرح أننا لم نتزوج. أدركت في وقت أنها مريضة عقلياً. وليست الغلطة غلطتها بل السبب التزاوج ما بين أبناء العم. وهذا ما كان سبب نوباتها الهستيرية وغضبها السريع.. ولكنني أتعبك بهذا فقد قال الطبيب إن عليك أن تستريحي..

أرادت روث أن تقول إنها غير متعبة.. أرادت أن تتوسل إليه حتى يبقى.. لكنها عرفت أنه لن يفعل. ترى أندم لأنه تزوج كما قالت دايا؟.

لكن دايا جعلتها تؤمن بأنه ما يزال على حب غرايس وكذبت بشأن آغي.. فهل كانت دايا مصابة أيضاً بمرض شقيقتها العقلي نفسه؟ ألهذا السبب لم يتزوجها؟ إنها تريده. تعرف روث هذا، ولن تقف عند حد للحصول عليه.

مر يومان أعلن بعدهما الطبيب أن روث أصبحت قادرة على النهوض من السرير.. كان سيزار مهذباً عندما شاهدها.. وكان أدبه يتزايد.. فعندما كانا يتحدثان فإما يكون حديثهما عن المصنع أو عن التصميمات.. وهذا مزق قلبها وآلمه.

اعترفت لنفسها بعد ظهر أحد الأيام عندما خرج لتفقد المزرعة أنها لن تستطيع البقاء أكثر من هذا.. كانت بمفردها

في المنزل فآغي وتياستيلا في زيارة، ولويجي رافق السنيور سيغورزا وتريسيلا في نزهة لرؤية مناظر المنطقة.

ذلك اليوم في أثناء وجبة الغداء ذكر سيزار أنه يرتب لها أمر السفر إلى انكلترا.. بدت الدهشة على عمته، فحاولت روث إخفاء الألم في عينيها لأنه يتوق للخلاص منها.

لم يذكر طفلهما البتة.. وكان الطبيب قد أكد حملها ولكنه شد على فمه، وبدا جهم الوجه عندما قالت له إن حملها بأمان.. ربما آن الأوان للرحيل قبل أن تجبر على الرحيل.. آه.. تعرف أن سيزار يتذرع بأن سبب سفرها قضاء عطلة عند أقاربها ليس إلا.

لكن كلاهما يعرف أنها لن تعود.. ولا جدوى ببساطة من عودتها.

إن معظم أغراضها في غرفة سيزار والوقت الآن مناسب لتستردها، كانت مشغولة بانتزاع الثياب من الخزانة، ووضعها على السرير عندما انفتح الباب فجأة.. انتفضت خافقة القلب، جزء منها مشتاق إلى رؤية سيزار وآخر خائف منه لكنه لم يكن سيزار، بل دايا.. كان وجهها متجهماً من فرط الغضب، وهذا ما جعل الخوف يسري في عروق روث بموجات باردة.

قالت دايا وهي تفح كالحية:

ـ أنت هنا! ألم أقل لك إن سيزار لا يريدك.. لكن الخادمة أخبرتني أنك في غرفته!

كانت روث على وشك أن تقول لها إنها توضب ثيابها عندما دفعتها إلى محادثتها موجة غضب، تساندها ذكرى ما.

ـ أنا زوجته دايا.. ولي كل الحق في مشاركته غرفته..

صاحت: «إنه لا يريدك! يا الله! ألا تعرفين ذلك؟ سيزار أرفع مستوى من جميع الرجال لذا لن ينكر على نفسه فراشك أو جسدك كما فعل مؤخراً لو كان يريدك».

عرفت روث أنها تقول الحق ولكن شيئاً ما دفعها للوقوف في وجهها والقول بهدوء:

ـ إن كان سيزار ينكر على نفسه فمن أجلي، وأجل طفلنا.. يعرف سيزار أنني...

ـ أنك تحملين طفله؟

أرعبت الكراهية المريرة في عيني دايا روث، التي أدركت أنها كانت غير حكيمة أبداً لأنها أشعلت نيران كراهية المرأة الأخرى وامتعاضها.. كان من الأفضل لو أخبرتها الحقيقة.. إنها الآن بمفردها في الغرفة مع امرأة خطرة، تتقدم إليها تقدم الفهدة للانقضاض على فريستها، شعرت روث بأن تلك المرأة ترغب في تمزيق لحمها وتدمير الحياة التي تنمو في أحشائها.

قالت دايا بصوت خفيض:

ـ انتظرته كل هذه السنوات ليأتي إليّ.. كنت أعرف طول سنوات الانتظار والترقب أن عليه في النهاية أن يتزوج من أجل اسمه.. ثم لما اعتقدت أنه أصبح لي.. جئت أنت..

سحبت نفساً ملؤه الحقد:

ـ حسناً.. سيكون لي.. ظنت غرايس أنها قادرة على أن تأخذه مني، وتلقت عقابها على هذا.. لا، لن أدعك أبداً أنت واللقيط الذي تحملينه تقفا بيني وبين ما هو حقي!

إنها مجنونة.. لا شك في هذا.. اهتزت روث وهي تنظر إلى العينين المجنونتين والقسمات الملتوية.. وكادت روث

تحس بأصابعها على عنقها، تضغطان عليها وتحرمانها من التنفس.

ارتدت إلى الزاوية، لكنها أدركت متأخرة أنها أخطأت.. إذ كانت دايا تحشرها كما تحشر القطة فريستها. ضحكت، تمد يديها إلى عنق روث، وعمّت ضحكتها المجنونة أرجاء الغرفة.

فجأة انفتح الباب ووقف سيزار هناك.. كانت سترته ملقاه بغير اكتراث على كتفيه.. وكان قميصه غير مزرر عند الياقة وظهر التعب في تجاويف وجهه.. تغيرت تعابير وجهه.. وحل الحذر مكان الإرهاق حالما شاهد المنظر أمامه.

أمسك ذراعي دايا، وجرّها بعيداً عن روث:

ـ دايا.. ديوس، ماذا تحاولين أن تفعلي؟

فتح الباب ينادي شخصاً في الخارج.

دخل الطبيب ماريولو الذي تغيرت ملامحه وعلت الصدمة وجهه بعدما رأى الإجرام في عيني دايا..

قال متأسفاً لسيزار:

ـ سأتعامل أنا معها يا صديقي.. خشيت هذا من زمن بعيد..

وصمت.. أحست روث بأنها تجر إلى دوامة مظلمة تحاول ابتلاعها.. تمكنت من القول:

ـ أنا بخير.. شعرت بإغماء طفيف.. أنا..

صاحت دايا بمرارة:

ـ أرادت أن تأخذك مني سيزار! قلت لها إنك لي.. أنا..

قال الطبيب ماريولو بحزم: «دايا عليك مرافقتي».

وتمتم لسيزار:

ـ إنها بحاجة إلى رعاية طبية، أزعجتني تصرفاتها منذ زمن بعيد.. أعرف عيادة معتادة على مثل هذه الحالة.. لقد تركت لمشاعرها تجاهك العنان وجعلتها تستحوذ على عقلها.

سمحت دايا للطبيب بأن يقتادها إلى خارج الغرفة.. قاومت روث هجوم الإغماء الذي هددها مجدداً. وأحست بساقيها وهنتين مهتزتين، ولكن عندما تحرك سيزار نحوها، أبعدته عنها، وعلى وجهها ملامح الرعب.

فقال:

ـ أنا آسف على ما حدث.

أدار ظهره إليها وتوجه إلى الباب المفضي إلى الفناء:

ـ كان عليَّ تحذيرك من دايا.. ولكنني ظننتها تحسنت.. لقد عانت قبلاً من انهيارين عصبيين.. وفي مثل هذه المناسبات تقنع نفسها بأنها واقعة في حب عميق مع ضحية وسواسها.. أنا آسف لأنني زججتك في ذلك.

ارتدت عيناه إلى كومة الثياب، فاسود وجهه.

ـ ما هذا؟

ردت بهدوء: «ثيابي.. كنت أخرجها من الخزانة عندما دخلت دايا.. أعتقد أن وجودي في الغرفة كان القشة التي قصمت ظهر البعير».

قال لها بصوت فظ:

ـ إن أردت نقل ثيابك من غرفتي إلى غرفتك، فبإمكان إحدى الخادمات القيام بذلك.. ولا داعي إلى..

قاطعته مرتجفة: أن أتطفل على وحدتك؟ لا تقلق، لن

يحدث هذا مجدداً.. فأنا أنقل ملابسي لأنني أريد أن أزيل نفسي من حياتك.. أنا عائدة إلى وطني.

صاح صيحة حادة: «لا! يورديوس!»

واجتاز الغرفة ليأخذها بقسوة بين ذراعيه.

ـ لن أتحمل المزيد، لن أسمح لك بالرحيل! أنت تحملين طفلي ولن أسمح لك.

ـ لكنك أردت أن أسافر.

تساءلت عما إن كان يسمع خفقان قلبها غير المتناسق، وتسارع نبضاتها المجنون.. أحست بذراعيه نعيماً بل الجنة نفسها التي لا ترغب أبداً في تركها. استطاعت أن ترى بداية لحية تنمو على فكه، وأرادت أن تلمسها..

ـ هذا لأنني خفت أن يحدث شيء كهذا.

رفعت يدها بين دائرة ذراعيها لتدفع شعرها إلى الوراء، ومضت عيناه.. ثم شدها إلى جسده المرتعش بتهور متوحش ثم تركها تشعر بنبضات قلبه المنتفضة. تحرك وعانقها بشدة سلبتها إرادتها، وجعلتها تتعلق به عاجزة.

تمتم: لن أدعك تتركينني.. أنت لي روث.. لي وحدي. الله وحده العارف بالعذاب الذي عانيته وأنا أراك تبتسمين لأخي ولعمتي، ولأي شخص آخر غيري! لا تعرفين كم تقت إلى نظرة حب منك.. وكم اشتقت إلى أن تريديني كما أريدك.. ليس فقط من أجل السعادة التي يشعر بها جسدانا، بل من أجل أن أحصل منك على قلبك وروحك.

كان تأثرها لا يحتمل ولكنها لم تستطع إنكار صدق كلامه أو إنكار المشاعر البارزة في عينيه الباحثتين في وجهها تتوسلان

ردها.

سألته مترددة وهي غير قادرة على تقبل ما سمعت:

ـ أنت تحبني؟

ملس شعرها، فشعرت برعشة جسده:

ـ وهل تشكين في هذا؟ أردتك منذ البداية.. وكرهتك في الوقت نفسه بسبب ما ظننت أنك عليه.

ـ ظننتك تحتقرني.. كنت بارداً.. متباعداً.

ـ لأنني لم أجرؤ على غير هذا. كنت طوال الوقت أعطي نفسي أعذاراً لئلا أفعل غير هذا.. إذ كان كل ما أردت فعله هو أن أضمك وأضمك بين ذراعي وأن أجعلك تعترفين بأن ما من رجل قادر على منحك السعادة التي أمنحك إياها.. كرهت لويجي حينما ظننته حبيبك، وعندما هددت بالبقاء في إشبيلية لرؤيته.. لم أفهم كيف توقف عن الرغبة فيك، كيف استطاع أن يرفضك وفكرت أنه لو رآك مجدداً فقد..

قاطعته بخشونة: «فكان أن اختلقت تلك الحاجة إلى مصمم لإنقاذه مني..»

ابتسم سيزار ابتسامة متجهمة:

ـ أنت على حق تقريباً.. لكن السبب الحقيقي أنني أردت أن أتركك بعيدة عنه، وقريبة مني.. ثم وصل، وانقلب كل عالمي رأساً على عقب.. لم تكوني الفتاة التي التقاها.. كنت امرأة أخرى، امرأة لا أعرف عنها شيئاً، امرأة قد يكون لها صديق أو حبيب لا أستطيع إبعادك عنه.. ثم أعطاني لويجي السلاح المناسب.. قال إن الناس يتكلمون عنا.. كان قلقاً عليك، وكنت أعرف أن عمتي ودايا ستأتيان لرؤيتك، وقصدت

أن يكتشفا ما كنا عليه.. لا يمكن السيطرة على بعض الأشياء.

جعل صوته الساخر التورد يزداد على وجهها:

ـ وكنت متجاوبة كثيراً.. حتى نسيت سبب مجيئي إلى غرفتك، ولم أعد أذكر إلا شدة رغبتي فيك وقوة حبي لك لأنني ساعتئذ كنت أحبك فعلاً. مع أنني كرهت الاعتراف لنفسي بذلك.

ـ لكنك بعد الزواج ابتعدت عني كثيراً، حتى ظننتك تكرهني!

أمسك وجهها بيديه، ونظر إليها كئيباً:

ـ لماذا لم تخبريني بأنك عذراء؟ ألتعاقبينني؟ ألتؤلمينني؟

لم تفهم ما يعني، لكنها قالت:

ـ حاولت أن أخبرك.. في السيارة ونحن في الطريق إلى هنا.. ولكنك رحت تتحدث عن مدى شعورك بالراحة لأنني لا أحتاج إلى «مقدمات». بعد ذلك لم أستطع.

ـ بدلاً من هذا، تركتني أعاني ألف عذاب وتركتني أكره نفسي لما فعلته بك.. شعرت بأنني أكرهتك على زواج لا تريدينه.. كانت بيننا رغبة قوية فأملت أن تنمو مع الوقت شيئاً آخر، ولكن، عندما اكتشفت أنني لم أحرمك فقط من حريتك، بل انتزعت منك حقك في وهب براءتك الحلوة إلى الحبيب الذي تختارينه، كرهت نفسي واحتقرتها.

همست: كنت بارداً، كريهاً.

ـ لأنها الطريقة الوحيدة التي أستطيع فيها منع نفسي من احتوائك بين ذراعي.. أردتك بقوة وشغف.. وكان عليّ أن أبني حاجزاً بيننا من أجلك. أردت أن أجثو على ركبتي متوسلاً

غفرانك.. لكن من أجل أن أفعل هذا كان عليّ أن أفرض حبي ورغبتي عليك مجدداً.. قلت لنفسي إن هذا ما لن أفعله أبداً.

صمت قليلاً ثم أضاف بصراحة صدمتها:

ـ يعرف كلانا كم دام قراري هذا. لقد لاحقتني آهات سعادتك في المرة الثانية ليالي وكأنها تأوهات أشباح.

ـ تركتني أنام بمفردي.

أطلق آهة: «يا حبي الجميل.. كان ذلك جحيماً، ولكن لم يكن لدي بديل.. كنت قد وعدت نفسي بأن أحررك.. إذ وجدت أن من الأنانية أن ألزمك بزواجنا.. لم أستطع مسامحة نفسي على سلبي براءتك. وعندما اكتشفت أنك تحملين طفلي..»

قاطعته: كنت بارداً نحوي حتى ظننت أنك لا تريده.. ثم جاءت دايا تخبرني بأنك تريد مني أن أرحل و..

أتم جملتها:

ـ وصدقت هذا؟ صدقت أنني أدرت ظهري لابنتي؟ آه روث، لا أستطيع أن أشرح لك ما يعني لي أن تحملي طفلي! تمنيت أن أبقيك هنا معي، ولكنني لم أستطع التمسك بخيط هش.. فأنا رجل متكبر وتكبري لا يسمح لي بإجبار زوجتي على البقاء معي من أجل الطفل فقط.

ـ وماذا إن كانت زوجتك تحبك..

أمسك ذقنها وعيناه قاتمتان بالمشاعر.

ـ لو تحبني.. لو أحبتني لما تركتها ترحل. عندما رأيت ذلك البناء وعرفت أنك في الداخل.. لو مت ساعتئذ لما كان للحياة معنى لي.

ـ لقد خاطرت بحياتك من أجلنا، من أجلي..

ـ وهل كنت تظنين أنني قد أسمح لأي شخص بالاقتراب منك. حينما يتعلق الأمر بما يعتبره الإنسان أغلى ما في حياته، لا يثق بغير نفسه لإزالة ذلك الخطر. وعندما طلبت مني أن آخذ آغي أولاً، مع أنك كنت على حق لم تعرفي ما كلفني تركي لك والموت يداهمك.

قالت هامسة:

ـ ولن تعرف أبداً ما أحسست به عندما رأيتك تختفي.. أردتك بشكل يائس.. ثم رأيتك بارداً معي وأنت تضعني في غرفة النوم تلك، في الوقت الذي كنت بأمس الحاجة إلى دفئك وذراعيك.. و..

سألها مداعباً: و.. ماذا؟ تابعي كوريدا، كنت على وشك أن تصلي إلى أهم جزء على ما أظن؟

ـ وللشعور بك قربي.

وضحكت على خجلها.. ثم تنهدت:

ـ آه سيزار وقعت في حبك منذ البداية.. رغم كل تلك الأشياء الرهيبة التي نعتني بها!

عبست عندما تركها فجأة ليلتقط كومة الثياب عن السرير، فسألت بلهفة:

ـ ماذا تفعل؟ سيزار..؟

ـ ظننتك راغبة في أن تكوني بين ذراعي؟

ـ آه! لكن..

ضحكت حالما احتواها بين ذراعيه وقال بصوت أجش:

ـ ما بالك؟ أليس مسموحاً للرجل أن يحب زوجته بعد

الظهر؟

ـ أنا..

تمتم سيزار: «أحبك».

رفعها بين يديه يحملها نحو سريرهما الزوجي وهي تسأل بذهول عما إذا كانت ماتيرا عرفت مثل هذه السعادة الغامرة المتهورة، وهذا العمق وهذا الحب الشديد، والحاجة لفارسها المتكبر.. ربما عرفت هذا.. فكرت روث فيما كان سيزار يلفها بذراعيه.

بكل تأكيد إن كان ذلك الفارس يشبه بأية طريقة حفيده.

* * *

www.elromancia.com